أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

مارس ٢٠٠٩ ـ العـــدد ٢٨٣

عدد خاص

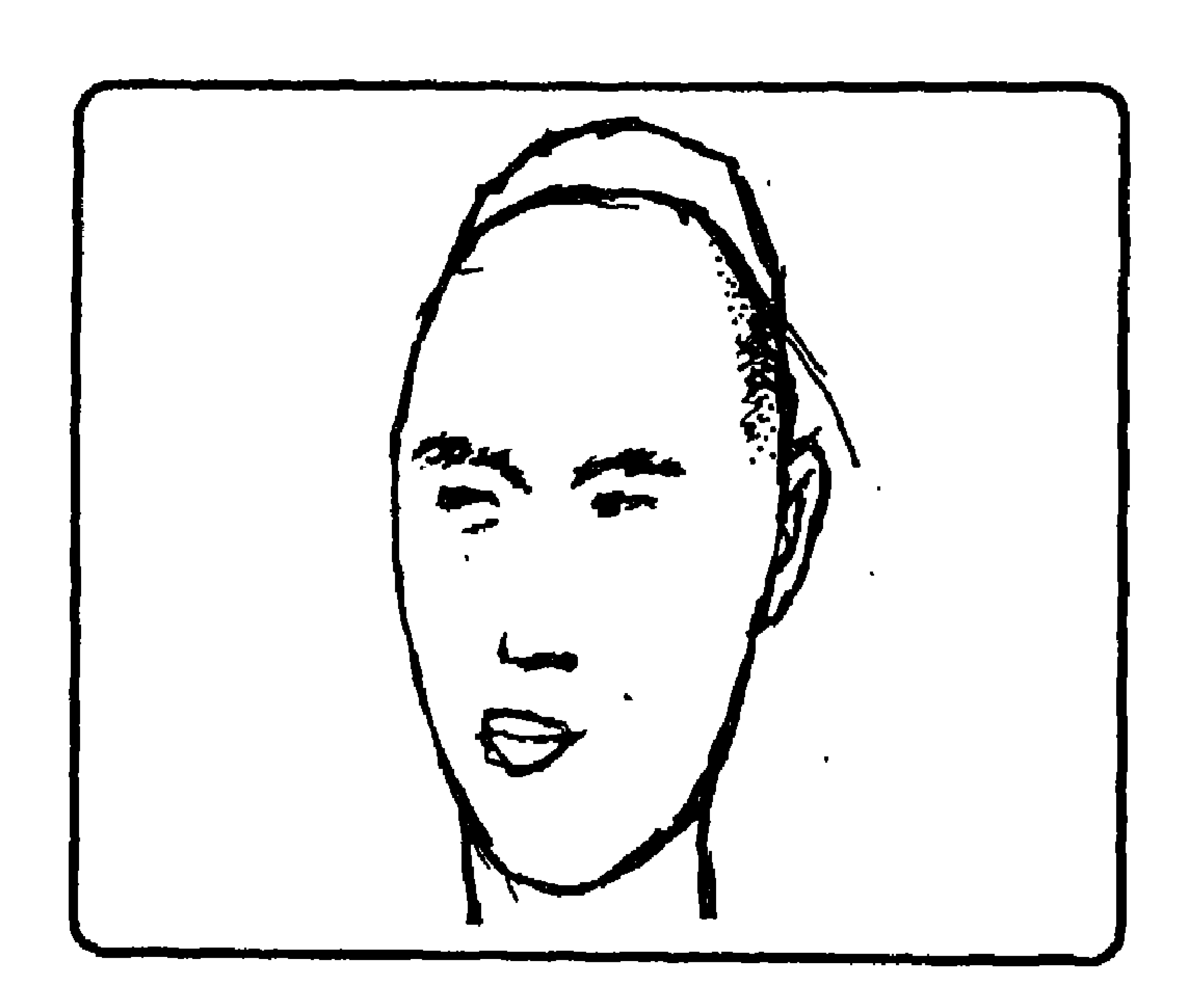


العالم وأنيس

الرفيقان في الإقامة والرحيل

أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية
شهرية يصدرها حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي
تأسست عام١٩٨٤ /السنة الخامسة والعشرون
العدد ٢٨٣مارس ٢٠٠٩



أدب ونقد

مستشار التحرير: **فريدة النقاش**

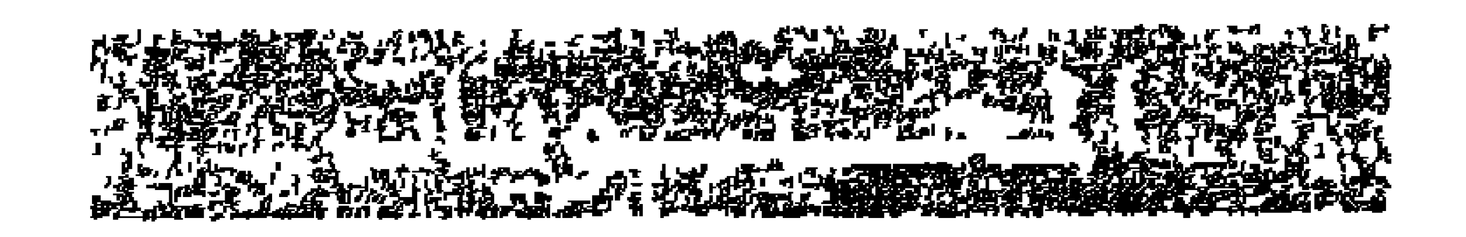
المشرف الفني: **أحمد السجيني**
إخراج فني: **عزة عز الدين**
مراجعة لغوية: **أبو السعود علي**

الرسوم الداخلية للفنان الراحل: حسن فؤاد

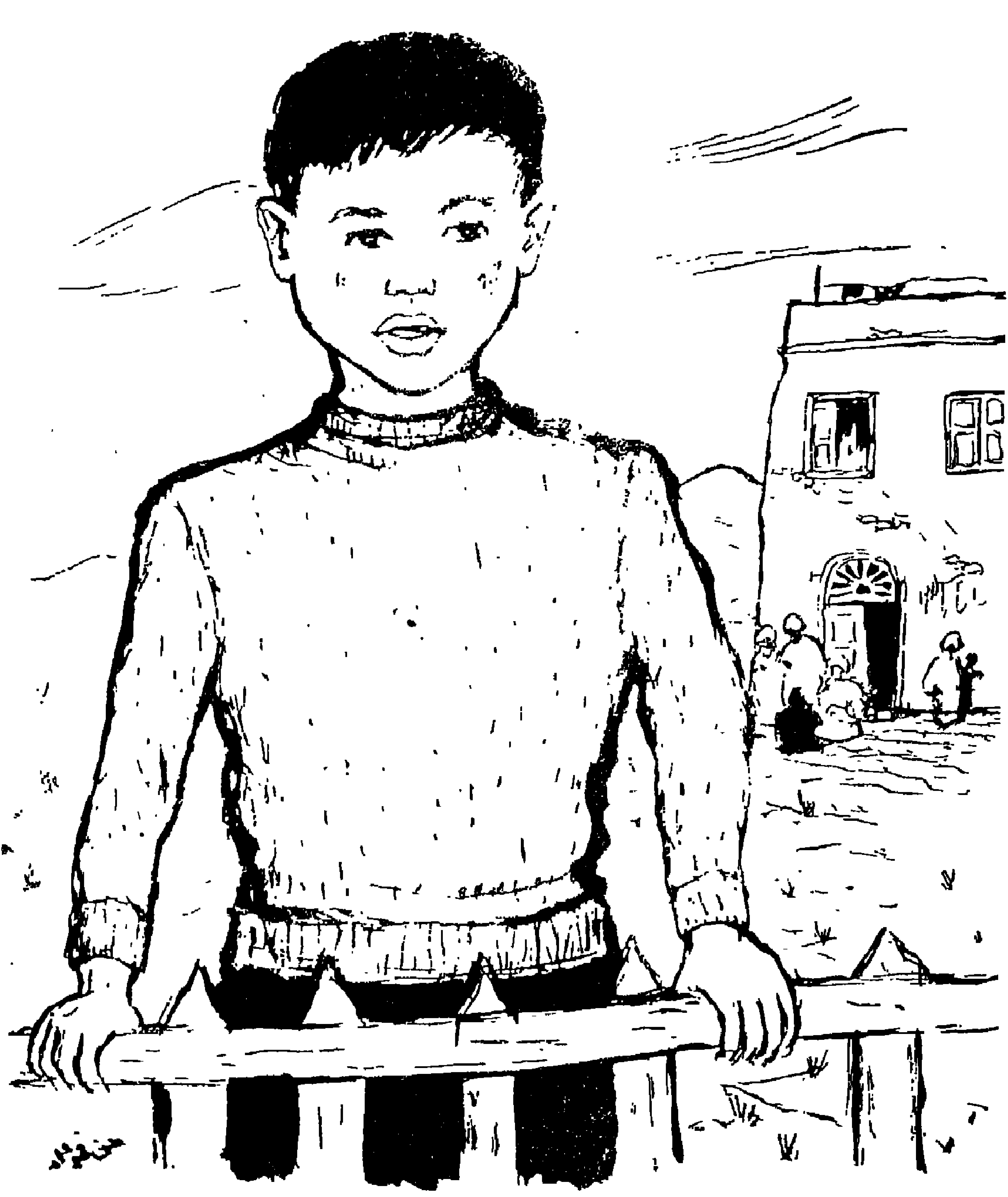
الاشتراكات لمدة عام
باسم الأهالي/ مجلة (أدب ونقد) : داخل مصر ٧٥ جنيها
البلاد العربية ٧٥ دولارا/ أوروبا وأمريكا ١٠٠ دولارا

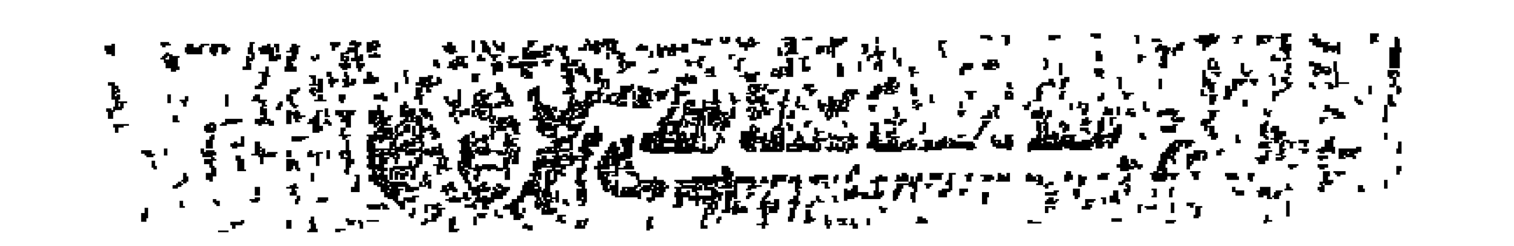
يمكن إرسال المواد على العنوان البريدى أو البريد الإلكترونى:
Cairo 680 @ Yahoo. com

المراسلات: مجلة (أدب ونقد) ١ شارع كريم الدولة/ ميدان طلعت حرب
القاهرة/ هاتف ٢٥٧٩١٦٢٨/٢٩ فاكس ٢٥٧٨٤٨٦٧



● مفتتح(١): سيرة مجلة مشاغبة.................... فريدة النقاش ٥
● مفتتح (٢) القنديلان .... حلمى سالم ١٠
● مفتتح (٣) أهزوجة الثبات (شعر) .... ماجد يوسف ١٦
– الرفيق .... صلاح عدلى ٢٠
– الأنيس .... د.ماهر شفيق فريد ٢٤
– أهل العلم وأهل السياسية .... صلاح عيسى ٢٧
– تطور الرؤية النقدية عند محمود أمين العالم .... د. صلاح السروى ٣١
● الديوان الصغير:
التوأم /شعر/ عبد الرحمن الأبنودى ٤٧
– أغنية دون كيشوت الأخيرة .... أحمد عبد المعطى حجازى ٦٤
– طفولتى بقلمى / سيرة/........................ د. عبد العظيم أنيس ٧١
– العالم: القيمة والرمز .... د. جابر عصفور ٨٢
– وفاء للأمل الاشتراكى .... فريدة النقاش ٨٩
– أنيس: عالم فذ وناقد أديب .... د. جلال أمين ٩٢
– عالم الرياضيات الوطنى .... د. مينا بديع عبد الملك ١٠١
– أجمل شيوعى رأته عين .... د. محمد الباجس ١٠٣
– كم بكينا دمعتين ووردة .... د. عبد العظيم أنيس ١٠٧
– رسائل العذوبة والتسامح .... شعبان يوسف ١١٢
– رحيل آسر لحياة مدهشة .... د. محجوب الحارث ١١٧
– المحمود والأمين والعالم .... حامد الحلبى ١٢١
– القاهرة ١٩٦٦ .... هانى الحورانى ١٢٥
– الفيلسوف مناضلاً .... سمير كرم ١٣١
– المتمرد .... د. عاصم الدسوقى ١٣٤
– العالم : المكافح الرقيق .... فاروق عبد القادر ١٤٠





سيرة مجلة مشاغبة

فريدة النقاش

> **شأنها شأن كل المشروعات الجادة التي تطمح إلي الحفر في الصخور الصلدة من أجل تغيير يدفع بالمجتمع إلي الأمام**

عاشت مجلة «أدب ونقد» ، ولاتزال ، ظروفا صعبة أولها وعلى رأسها شح التمويل، فحزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى الذى يصدرها غنى بمثقفيه ومفكريه وعضويته الواسعة من العمال والفلاحين والموظفين والطلاب، ولكن مصادرة المالية شحيحة، ومع ذلك فهو لم يتخل أبداً عن المجلة التى تصدر بانتظام منذ يناير (كانون الثانى) عام ١٩٨٤ وإن كانت تظهر فى ورق رخيص وطباعة متواضعة.

تضاف إلى ذلك الصعوبات الحقيقية التى تواجهها الثقافة المكتوبة فى عصر ثورة الكمبيوتر، كذلك يبدو فى بعض الأحيان وكأننا قادمون من عصر غابر يتحدث عن الثقافة الوطنية فى عصر العولمة، ونحن نسعى لإضاءة هذه الثقافة الوطنية الديمقراطية التى تغتنى بالانفتاح على كل الثقافات الأخرى، وتبقى دائماً - فى حالة فعاليتها - قوة معنوية ملهمة لشعب يعانى ظروفاً اقتصادية واجتماعية وسياسية قاسية، ولا يتبقى له وقت ولا مال لقراءة المجلات الثقافية،

• الكلمة التي ألقتها فريدة النقاش في احتفالية ٢٥ سنة علي صدور «أدب ونقد» يوم أول فبراير ٢٠٠٩ .

لأنه مشدود للمرئى والمسموع دون نقد .. والنقد والوعى الناقد هما رهان مجلتنا الأساسى، ولا نزيد - كدت أقول : لن نقبل بأن تدهسنا العولمة الرأسمالية، ونذوب فى النمطى.

ولهذا رعت المجلة عبر مسيرتها الطويلة كل صور المغامرة الإبداعية على أن تتوفر لها شروط الإبداع . وقد تصور الكتاب فى البداية أنها مجلة حزبية بالمعنى التقليدى السيىء، ثم فوجئوا بأن مساحة الحرية المتاحة فيها أوسع كثيرا من تلك المساحة المتوفرة فى منابر أخرى، بل وربما فى المجتمع قاطبة، ولم يكن نادرا أن تحدث مشكلات مع قيادة الحزب بسبب هذا التوجه.

لقد انخرطت «أدب ونقد» فى الدفاع عن حق الاختلاف، وأعدت ملفات كثيرة عن الكتب والأفلام والمسرحيات المصادرة، وأدارت حوارات غنية مع كبار المؤلفين والمبدعين، وكشفت صور الثقافة التجارية الاستهلاكية المهيمنة، التى ارتبطت بأيديولوجية عبادة السوق، وبالنمط شبه الموحد الشائع على الصعيد العالمى، ولذى يمثل شكلا من أشكال الإكراه الناعم، حيث يبدو وكأنه اختيار حر، يتطابق شكليا فقط مع سمة من سمات عصرنا باعتباره عصر حقوق الإنسان.

ويبحث العاملون فى المجلة بدأب على الصور غير الشائعة لأدب المقاومة، ومقاومة التنميط على نحو خاص، وفى هذا السياق كانت قضايا الهوية بتناقضاتها والتباساتها حاضرة ومتجلية فى مظاهر متعددة من الهوية الوطنية للهوية الدينية، ومن الطائفة للعرف للقبلية فالأسرة . وكان ملفاً من الملفات المخصصة للتعرف على الهويات عن «أدب المنبوذين فى الهند».

وتشكل الهويات والخصوصيات - أيا كان مستواها - نبعا لا ينضب للأدب وهو يلتقط أدق التفاصيل وللنقد وهو يلملم الشظايا ويضعها فى إطار وسياق مستخلصا المعنى من اللامعنى، ومحاولا التقاط الدلالات المخفية.

ورغم سلبية عملية تفتيت الهويات لأصغر مدى فقد وجدنا فيها ردا - فى بعض الأحيان - على عنف الاستغلال الاقتصادى والاضطهاد القومى ، وبقيت دائماً نبعا غنيا لخصوصيات الخيال البشرى فى مواجهة عملية التوحيد والتنميط القسرى التى يقوم بها السوق والعولمة الاقتصادية الرأسمالية بما يصاحبها من تهميش واستبعاد.

وكان انشغال «أدب ونقد» الدائم بهذه القضية علامة مميزة على جدة المجلة وعصريتها، رغم فقرها المادى، ولا أنسى أبدا ما قاله الفنان التشكيلى المبدع «حلمى التونى» : إن مجلة أدب ونقد مثلها مثل مصر .. فقيرة

وجميلة».

فهل يا ترى حين نردد هذا الكلام الجميل المريح نكون قد وقعنا فى أسر الشوفينية المغرية خاصة حين تكون البلاد فى حالة ضعف؟؟ لا.. لا أظن.. فمن يعرف الحياة الثقافية والاجتماعية المصرية عن قرب، ويتعامل مع القاعدة الشعبية العريضة، سرعان ما يكتشف حقيقة أن لدى المصريين قدرة مذهلة، رغم الفقر، على تجميل الحياة. وكما يقول المثل الشائع: «يعمل من الفسيخ شربات». فإذا ما توفر الإخلاص ووضوح الهدف والحد الأدنى من الإمكانيات، يصنعون الكثير ، وهذا هو العنصر الخفى الذى يراهن عليه المتفائلون من دعاة التغيير والإصلاح.

يقول البعض إن هذه بعض ملامح ثقافة الفقر.. ربما كان ذلك صحيحا، لكن المؤكد أن اقتناعنا وحماستنا للدور الذى تلعبه مجلتنا كمجلة فقيرة وجميلة مثل مصر، لا ينطوى على أى نوع من إعلاء شأن الذات أو التعصب القومى أو الرغبة فى التستر على الأخطاء التى تقع فيها المجلة.

لقد انحازت «أدب ونقد» على امتداد تاريخها للأدب الواقعى، مستشهدة دائماً بكلاسيكياته الكبرى والخالدة، معتبرة أن كل أدب عظيم هو أدب واقعى، ويرتبط هذا المنحى بالفكرة السابقة عن الهويات والخصوصيات، وكما يقول جورج لوكاش: «الفن والأدب يستخلصان من هذه التفاصيل، ومن تكوين العلاقات فيما بينها ما هو إنسانى عام فن الإنسان، حين يهتمان بجدلية الروح ، وخواص الذات البشرية الأكثر جوهرية والأعمق، ولكن الطريق نحو معرفتها يقع عبر دراسة التفاصيل والجزئيات والخصوصيات».

وللخصوصيات فى هذا السياق معنى إيجاباً دافعا للحياة والتجديد الذاتى، وناف للمعنى الذى تستهدف النزعات الأصولية الدينية تجذيره فى المجتمع ، وهو الانغلاق على الذات والإعلاء من شأنها باعتبار أن تفردها هو تفوق على الآخرين، وحتى تصل الأصولية الدينية لمثل هذه الوضعية المستحيلة فإنها تسجن نفسها فى الماضى، وتقطع الخطوة الأولى على طريق تكفير الآخر ونفيه.

وقد انشغلت «أدب ونقد» - ومازالت - بقضية «الإسلام والحداثة والديمقراطية» من كل زواياها ، ورأت دائماً أن الحداثة هى حتمية تاريخية لابد أن يركب العرب قطارها ، حتى لا يخرجوا من التاريخ، وطابقت بينها وبين الحرية والصناعة، وقال مكسيم جوركى: «إن الأدب هو عين العالم التى ترى كل شىء، وهو أيضا وسيلة لتوحيد وتماسك البشر، ولا تقل حاجة الإنسان للفن والأدب فى

عصر التقدم العلمى والتكنولوجى الهائل وثورة الاتصال والمعلومات عن اكتشاف أسرار الروح التى تبقى دائماً فى حاجة للاكتشاف والإغناء.

وتكمن قوة الفن الحقيقية فى ارتباطه بالناس ، وبالشعب الذى يلهمه ، ويظل الفنان يبحث عن فرادة الأنا الإنسانية فى سياق علاقتها بالجماعة، وآفاق تطورها الاجتماعى ، وفى ارتباط وثيق بقدرته على نقل الإحساس بالفرح والأخوة والتضامن ، وامتلاء الوجود الإنسانى.

أما الاستقبال الجماعى فهو بدوره فرح خالص نزيه، ولا ننسى أن نلتقط هنا عناصر التشابه بين هذا المعنى ومعنى أن يكون الإنسان عضوا فى حزب تقدمى يستهدف إرساء هذه القيم والمعانى النبيلة فى حياة الناس، وهم ينهضون بعملية تحرير أنفسهم من الاستغلال والاستعباد والخوف، وتحرير أوطانهم فى آن واحد.

وطالما ناقشنا علاقة «أدب ونقد» بالسياسة ونحن ندفع عن أنفسنا تهمة «تسييس الأدب» ، وهى تهمة جاهزة لأى مجلة يصدرها حزب.. واستغرق الأمر وقتا طويلا، بل إن النقاش لايزال جاريا حول الفرق بين المعنى اليومى للسياسة كأحداث ومواقف، والمعنى الأعمق لها كرؤية للعالم، هى التى تحددمضمون السياسة، إن كانت تقدمية أو محافظة. وطالما أصرت «أدب ونقد» على انه ما من سياسة حقيقية دون ثقافة حقيقية، تضرب بجذور عميقة، لا فى تراث الثقافة العربية الإسلامية وحدها، وإنما فى التراث الإنسانى كافة، حيث نضىء منه ما يحيى، وننتقد ما يموت ، ونضعهما معا فى سياق وارتباط جدلى بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لكل عصر ومرحلة.

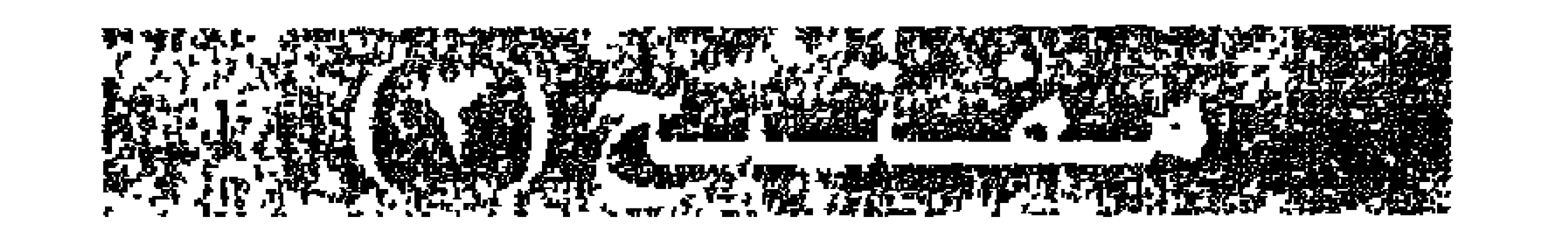
ماذا نستهدف؟. الرد على هذا السؤال صعب، لكن لا أخفى زننا نريد أن نطال النجوم. ولا نريد أن نمضى دون أثر، بل نتمنى أن نؤثر لا فى خيارات أجيال من الأدباء والمفكرين فحسب، حتى لو بقى هذا التأثير نخبويا، وإنما فى حياة ذلك القطاع من الشعب الذى يمثل له الأدب والفن قيمة.. نريد أن يكون لنا تأثير شعر المقاومة الفلسطينية.. هل هذا كثير؟.. كلا وإليكم هذه القصة: دخل الفنان التركى التقدمى «إبراهيم بالابان» السجن بسبب أفكاره ونشاطه الثورى ، وهناك رسم لوحة تعبيرية أطلق عليها اسم «الجريمة»، وكان أن شاهد اللوحة مجرم عتيد عجوز، فوقف أمامها طويلا متأملا، ثم قال للفنان: آه يا إبراهيم لو كنت رسمت هذا من قبل، ربما ما قتلت أنا أحداً.

أدب ونقد سألنى شاعر صديق هل استطاعت «أدب ونقد» أن تختصر المسافة، ولو قليلا، بينها وبين من تتوجه إليهم؟.



وهل نجحت فى إشاعة قبس من الثقافة الوطنية الديمقراطية التى تتصدر غلافها شهريا، أم أنها لا تختلف كثيرا عن المجلات الأدبية التى تصدر فى مصر والوطن العربى؟. وقد أحلنا السؤال لقرائنا وأصدقائنا ، ونتوقع إجابات متباينة، لأننا شأن الحزب الذى تصدر عنه المجلة، نسعى بجد لتطبيق منهج المشاركة.

وسوف نبقى على نهجنا ، إلا لو ثبت لنا واقعيا أنه خطأ.. وفى كل فن أو فكر سوف نسأل أين الإنسان؟. إذ نؤمن بقدراته الخلاقة والكامنة التى ما أن يتاح لها الازدهار إلا ويصبح العالم أجمل، ويصبح أيضاً جديرا بالبشر، ويفعل الفكر النقدى الحر فعله لتحويل هذا العالم.. وتقليل حجم التعاسة فيه، من أجل فرح يدوم، وعدل ترفرف راياته بحرية ■



الـــقـــنـــديـــلان

حلمى سالم

برحيل محمود أمين العالم (١٩٢٢ - ٢٠٠٩) ود. عبد العظيم أنيس (١٩٢٣ - ٢٠٠٩) تفقد الحياة السياسية والفكرية والأدبية المصرية والعربية علمين خفاقين من أعلام النهضة والتنوير الخفاقة فى النصف الثانى من القرن العشرين

هذان المفكران اللذان واصلا طريق المنورين المصريين والعرب المرموقين، بدءاً من رفاعة الطهطاوى وحسن العطار ومحمد عبده وشبلى شميل وفرح أنطون وسلامة موسى وطه حسين وغيرهم من حملة المشاعل المضيئة فى تاريخنا الحديث.

وكانت «أدب ونقد» قد قدّمت ملفاً خاصاً عن محمود أمين العالم، عام ١٩٩٢، بمناسبة بلوغه السبعين، كما قدمت ملفاًخاصاً عن د. أنيس عام ١٩٩٣ بمناسبة بلوغه السبعين، ثم قدّمت ملفاً خاصا آخر عام ٢٠٠٧، عن العالم بمناسبة بلوغه الخامسة والثمانين.

واليوم، نهدى إليهما هذا العد دالخاص كله تحيةً لهما معا، لهذين الصنوين اللذين عاشا معا، وكافحا معا، وسجنا معا، ورحلا معا، عرفاناً منا ومن الحركة الفكرية والثقافية المصرية والعربية، بما أضاءاه من شموع فى درب النهضة العربية المأمولة .

* * *

كان محمود أمين العالم (يصعب علىّ أن أقول: كان) واحداً من أرفع المثقفين العرب فى العقود الأخيرة الذين يعدّون استمراراً للسلسال المبارك فى الثقافة العربية. تلك العائلة الكريمة التى تبدأ بعلى بن

أبى طالب وأبى ذر الغفارى، وتمر بالحلاج والمعتزلة وابن رشد، ولا تنتهى عند طه حسين وعلى عبدالرازق وحسين مروة ومهدى عامل والطيب تيزينى وغيرهم.

وقد تجلت هذه الرفعة الرفيعة عند محمود أمين العالم، فى ثلاث خصائص كبرى ميزته عن العديد من أترابه من كبار المثقفين المعاصرين:

الخصيصة الأولى: هى ربطه «النظر بالعمل»، فلم يكتف بصفاء الاعتصام برؤاه النظرية الفكرية فى «برج عاجى» شاهق، ينعزل به عن مجريات الواقع المؤار الملوث. بل أقام جدلاً خصباً بين «النظرية» و«التطبيق»، فاغتنى الفكر بالواقع واغتنى الواقع بالفكر، وبذلك جسد لنا نموذجاً حياً لما أسماه المفكر الإيطالى أنطونيو جرامشى «المثقف العضوى»، منطلقاً فى ذلك من الجملة التى كان يرددها لنا كثيراً: «النظرية رمادية، لكن شجرة الحياة خضراء».

وقد كلفه هذا الربط الجدلى بين النظر والعمل أثماناً باهظة تعددت صورها: بدءاً من الاعتقال (سنوات ١٩٥٩ - ١٩٦٤)، مروراً بالنفى (سنوات السبعينيات) وليس انتهاء بالعزل والحجب، طوال العقود كلها. لكن الرجل الصلب المتفائل المبتسم ظل صلباً متفائلاً مبتسماً.

الخصيصة الثانية: هى عقله الحى المتحرك النابض، الذى لا يقع فى عبادة النصوص، ولا يقع فى «تصلب الشرايين» الفكرية فلا يتجدد الفكر ولا يتزعزع اليقين. كان هذا العقل الحى النابض يدفع العالم، مراراً، إلى تعديل رأيه أو توسيع فكرته أو تطوير معتقداته. ولعل المثل الأبرز لذلك مقدمته الجديدة لكتاب «فى الثقافة المصرية» الذى كتبه هو وعبدالعظيم أنيس (١٩٥٥)، ثم طور أفكاره ووسع رؤاه فى الطبعة الجديدة التى صدرت عن دار الثقافة الجديدة عام ١٩٨٩. إن المثقف الواثق الرفيع هو الذى لا يرى أن أفكاره «عجل أبيس» المقدس الذى لا يطاله التعديل من أمام أو من خلف!

الخصيصة الثالثة: هى «احترام الآخر» ذلك الاحترام الذى لا يرى صاحبه أن رأيه هو «الحق الوحيد» وما عداه هو الباطل. كأن العالم فى ذلك يتأسى بجملة الإمام الشافعى الباهرة «رأيى صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب». وهو فى ذلك ينطلق من تقدير مفهوم «التنوع» الفكرى والسياسى والجمالى، ومن تقدير مفهوم «الاختلاف» المناقض (بل المناهض) لتحويل الناس إلى صيغ متشابهة متكررة «كالكليشيهات» الجامدة.

يشيع الظن بين كثير من العامة أن الماركسيين - والعالم واحد من كبار كبارهم - متقوقعون فى «قمقم» النظريات الهائمة، وأنهم يعتقدون أن

أفكارهم مقدسة حديدية لا يدخلها تعديل أو توسيع أو تطوير، وأنهم دعاة «الرأى الواحد» الذى لا يرى لرأى الآخرين وجوداً. لكن محمود أمين العالم، بما قدمه من فكر وكتب ومواقف وسلوك سياسى وثقافى وإنسانى كان (يصعب علىّ أن أقول: كان) نموذجا زاهيا نافيا وداحضا لهذه الظنون والتصورات الخاطئة الشائعة، بل إن نموذج العالم انطوى - فوق كل ذلك - على نزع صوفى عميق دفين، غلف رؤاه الفكرية ومواقفه السياسية جميعاً. فياله من ماركسىّ أصيل فى إهاب صوفى أصيل.

***

كنت أشير إلى مفارقة رحيل عبد العظيم أنيس بعد خمسة أيام لا غير من رحيل رفيق عمره محمود أمين العالم، حينما قلت لرئيسة تحرير الأهالى فريدة النقاش: هذان الرجلان اللذان عاشا ماديين جدليين، ماديين تاريخيين ، صنعا فى موتهما صنيعا ميتافيزيقيا ساطعا، حينما رفض أحدهما «أنيس» أن يبقى فى الحياة بعد ذهاب رفيقه «العالم» إلا أياماً قليلة، وهذا هو المعنى الذى قصدته شهرت العالم، وهى تبلغنى بنبأ رحيل «أنيس»: «ما قدرش يستنى بعد موت صاحبه!».

ردت فريدة النقاش على قائلة : «ليس فى الأمر ميتافيزيقا، قل إنها مصادفة». هنا تذكرت كتاب محمود أمين العالم «فلسفة المصادفة»، وتذكرت تبسيط العالم فكرتها لنا بقوله «إن المصادفة هى جماع مجموعة من الضرورات». وقد تضافرت فى ظاهرة «العالم، أنيس» جملة من الضرورات التى كونت، بتراكبها ، هذه المصادفة الباهرة.

تقاربا معا فى سنة الميلاد، العالم ١٩٢٢، وأنيس ١٩٢٣، ثم بدأ معا فى الصبا الإنتماء إلى الفكر الاشتراكى العلمى، فكانا سويا فى طليعة شباب اليسار المصرى فى الأربعينيات، وأصابهما معا رذاذ العنف الناصرى، حينما فصلهما عبد الناصر، إبان أزمة مارس ١٩٥٤، من التدريس بجامعة عين شمس، ثم التقيا فى أهمية أن يكون الأدب فى خدمة المجتمع ، فدشنا مبكرا ما صار يعرف فى حياتنا الثقافية باسم «الواقعية الاشتراكية» فى الأدب والفن، وخاضا من أجلها معارك شرسة مع القطبين الكبيرين طه حسين وعباس العقاد، اللذين كانا قاسيين فى سجالهما مع الشابين، فمرة وصف طه حسين مقالات الشابين اليساريين بأنها «يونانى لا يقرأ»، ومرة قال العقاد عنهما: «إننى لا أناقشهما، بل أضبطهما» فى إشارة خبيثة إلى الإنتماء اليسارى للشابين.

وقى سجل الشابان اليافعان الملتزمان هذه الحوارات الساخنة فى كتاب «فى الثقافة المصرية (١٩٥٥) الذى يعده الكثيرون «بمن فيهم خصوم الشابين وخصوم الواقعية فى الأدب» كتابا رائدا وفاتحة لاتجاه صار يتعمق فى

الفكر المصرى الحديث. وكانت المعارك «النقدية» التى دارت حول هذا الكتاب - كما قال العالم مرات - غطاء لمعارك سياسية وأيديولوجية، فى الحياة المصرية، طوال الخمسينيات والستينيات.

فى يناير ١٩٥٩ جمعتهما المعتقلات الوحشية التى فتحها النظام السياسى لاستقبال الشيوعيين فى الحبسة التى استمرت حتى عام ١٩٦٤، فوحدت بينهما - وبين الكثيرين - الصلابة أمام التعذيب والقوة فى الروح، والثبات على المبدأ.

ربط بينهما، بعد الخروج من المعتقلات ، قيادة بعض المؤسسات الثقافية، أثناء محاولة الثورة الناصرية التقرب من اليساريين فى منتصف الستينيات. ثم زارهما المرض، سوية، فى السنوات الأخيرة، وظهر الرفيقان فى عزاء أحمد نبيل الهلالى: العالم هزيل البنية، وأنيس على كرسى.

وعندما أسلم العالم الروح فى مستشفى بالدقى، كان أنيس فى حالة حرجة بمستشفى فى مصر الجديدة، ولم تمر سوى خمسة أيام حتى لحق الرفيق بالرفيق.

هذه هى مجموعة الضرورات التى تجمعت فكونت «حتمية المصادفة» فسلاما للرفيقتين اللذين عاشا تجسيدا للحتمية التاريخية، وماتا تجسيدا «للمصادفة التاريخية».

***

حينما توفى المفكر والعالم الكبير د. عبد العظيم أنيس منذ أيام قليلة، كنت أتابع إعلانات النعى والعزاء التى نشرت فى الأهرام طوال الأيام التالية لوفاة الرجل، فوجدت عجبا. كان كثير من الهيئات والمؤسسات الحكومية والاقتصادية (العامة والخاصة) تنشر التعزية بالصيغة التالية : «هيئة أو مؤسسة كذا تشاطر بمزيد من الحزن والأسى الدكتور طارق كامل وزير الاتصالات (وأحيانا يضاف : والدكتور حسام كامل) لوفاة خال سيادته!» بدون أى ذكر لاسم أو صفة خال سيادته! ومعروف أن د. أنيس هو خال طارق كامل وزير الاتصالات وحسام كامل رئيس جامعة القاهرة. كنت أتعجب من هذه الهيئات (وبعضها هيئات علمية) التى لا ترى فى الراحل الكبير د. أنيس سوى أنه «خال سيادة» وزير الاتصالات أو «خال سيادة» رئيس جامعة القاهرة، بينما هو المفكر الكبير والعالم المرموق وأستاذ الرياضيات الأشهر، وهو الذى رأس هيئة الكتاب وغيرها من المؤسسات المهمة فى الستينيات، حينما كان هؤلاء «السادة» يلبسون «الشورت» ويلعبون فى «حوش» مدارسهم الابتدائية.

استوقفتنى فى هذه التعزيات، التى هى رسائل مصلحة موجهة

أدب ونقد

ونفاق فاقع للسلطات، تعزيتان: الأولى تعزية مجموعة طلعت مصطفى (المحبوس بتهمة التحريض على قتل الراقصة سوزان تميم) الموجهة إلى «خال سيادة، وزير الاتصالات» ومفهوم أن توجه مجموعة اقتصادية عقارية واقعة فى مأزق أخلاقى راهن «محلستها، إلى وزير الاتصالات وتعزيّه فى وفاة «خال سيادته»، بدون ذكر اسم هذا الخال «النكرة». وكيف لمؤسسة عقارية «تشفط» فلوس الناس لكى تبنى «مدينة عالمية على أرض مصرية» أن تذكر اسم الراحل الذى تنعيه، وهو مفكر شيوعى معاد للاستغلال والنهب والفساد؟.

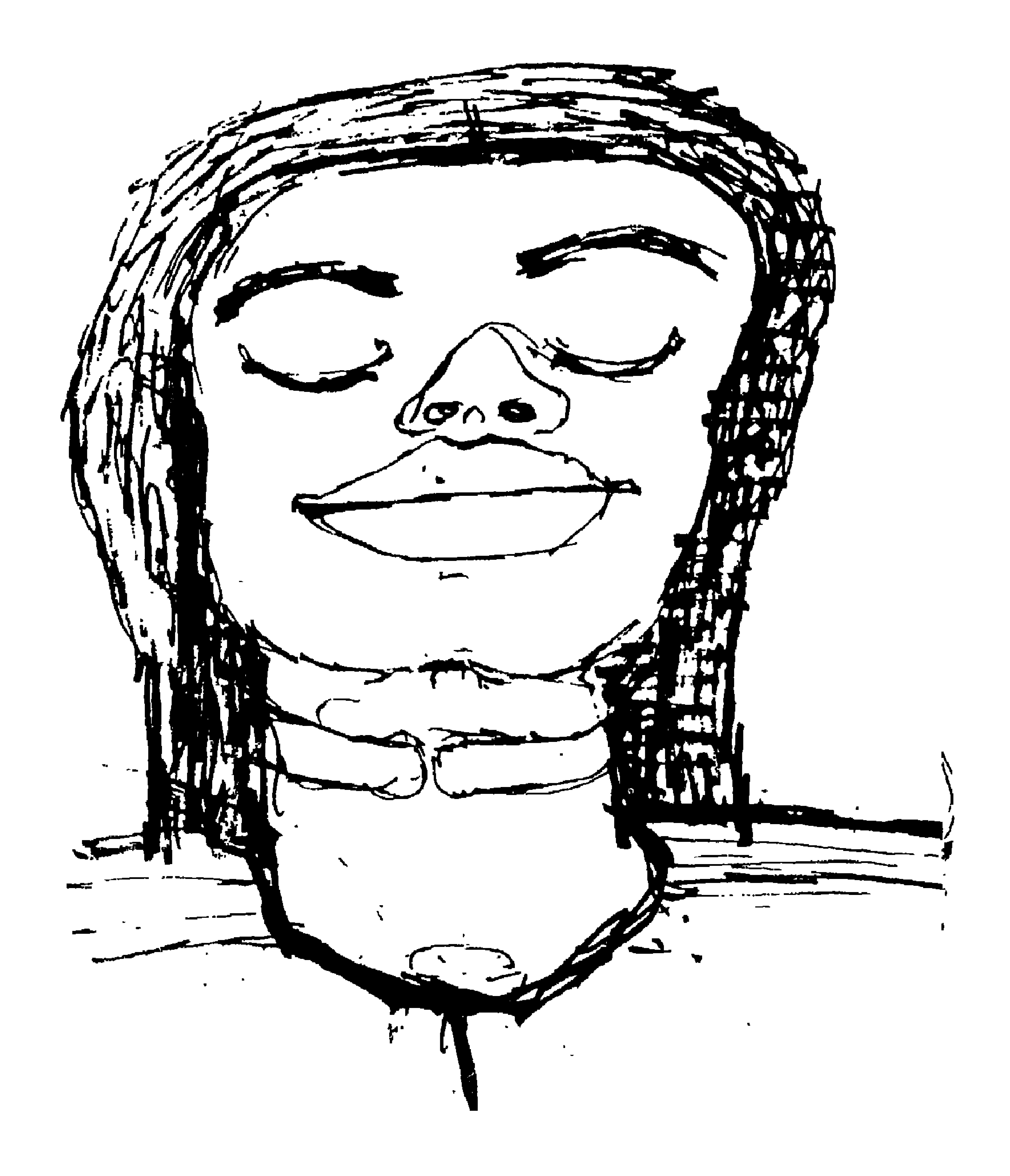
الثانية: تعزية وزير الإعلام أنس الفقى، الذى عزى د. طارق كامل فى وفاة «خال سيادته» بدون ذكر اسم هذا الخال، وهو يعلم قدر هذا الخال ووزنه فى الحياة الفكرية والعلمية المصرية (او المفروض أنه يعلم بوصفه وزير الإعلام).

هل كل هؤلاء الذين عزوا فى «خال سيادته» لا يعرفون من هو الخال الراحل عبد العظيم أنيس؟ إذا كانوا يعرفون قدره ويتجاهلونه (بدافع التدليس ومسخ الجوخ) فهذه مصيبة فاضحة. وإذا كانوا لا يعرفون قدر هذا الخال، فهذه مصيبة فاضحة. والأرجح عندى أن الجميع يعرفون قدر الخال الراحل، لكنهم أرادوا استخدام اسم الراحل بصفته «كوبرى» لنفاق السلطات. وهو «فعل خسيس» منزوع الكياسة واللباقة والحس الإنسانى السليم.

هل نتذكر- فى هذا السياق - يوم مات الشاعر الفرنسى الشيوعى لويس أراجون (١٩٨١). يومها قطع التليفزيون الفرنسى إرساله، وظهر ميتران، رئيس الجمهورية آنذاك (ولم يكن شيوعيا) يقول على شاشات التليفزيون: «اليوم غربت شمس فرنسا. لقد مات أراجون»، أما فى مصر فإن «مسح الجوخ» يصنع الكثير من الأعاجيب المنحطة .

• • •

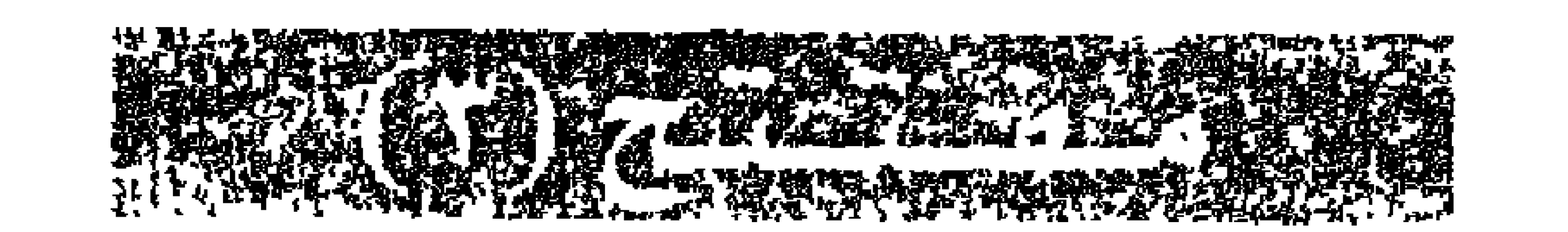
لقد ترك العالم وأنيس رهطاً كبيراً من التلاميذ وتلاميذ التلاميذ،



أولئك الذين تشرّبوا من الرجلين (الغائبَين الحاضرَيْن) الروحَ التقدميَّ والنزعَ العقلانى والوجدان الإنسانى. وهذا الرهط الكثير قادرٌ (باستلهام سيرة ومسار الراحليْن) على أن يعوضنا عنهما خير التعويض. وإذا كان المثل التقليدى يقول: «من أنجب لم يمت»، فنحن نقول: «من خلّف أجيالاً من المريدين والقلوب المفتوحة للحياة والأمل، لم يمت».

على الغائبيْن الحاضريْن السلام ■

أدب ونقد



أهزوجة للثبات

إلى محمود أمين العالم

ماجد يوسف

وتر وحيد عزف
.. فهزنا الكمان
وقلبنا ارتجف
.. فقلنا له: كمان

النغمات العذارى
.. فى منتهى الشباب
حافظت على البكارة
.. فى منتهى الغياب

مفيش قتال دمث
ولا طعنة فيها ذوق
.. إلا للمنغمس
.. فى تحليل العروق

أدب كأنه نقد
ونقد كأنه فن

وحضور كأنه فقد
ويقين كأنه ظن

الملمح كان جديد
وكأنه لمح برق
والرعد المستميت
عمل ف حياتنا فرق
ثقة ملهاش حدود
وأمانة ف الابتسام
.. ملت العدم وجود
..والفوضى بالانسجام

حرموا الورود .. هوا
واعتقلوا كل غصن
لكن عشان سوا
.. ملينا الحلم حزن

شفنا الروح انتقل
من «من» .. إلى «إلى»
وهزمنا المعتقل
بسيل الأسئلة

وحرقنا المرحلة
.. «بالصدفة، وبالأمل
فكنا القنبلة
بالوعى اللى اكتمل

وقبنا بالانفجار
وساعدتنا اللغة

وحررنا الإطار
بس المضمون طغى

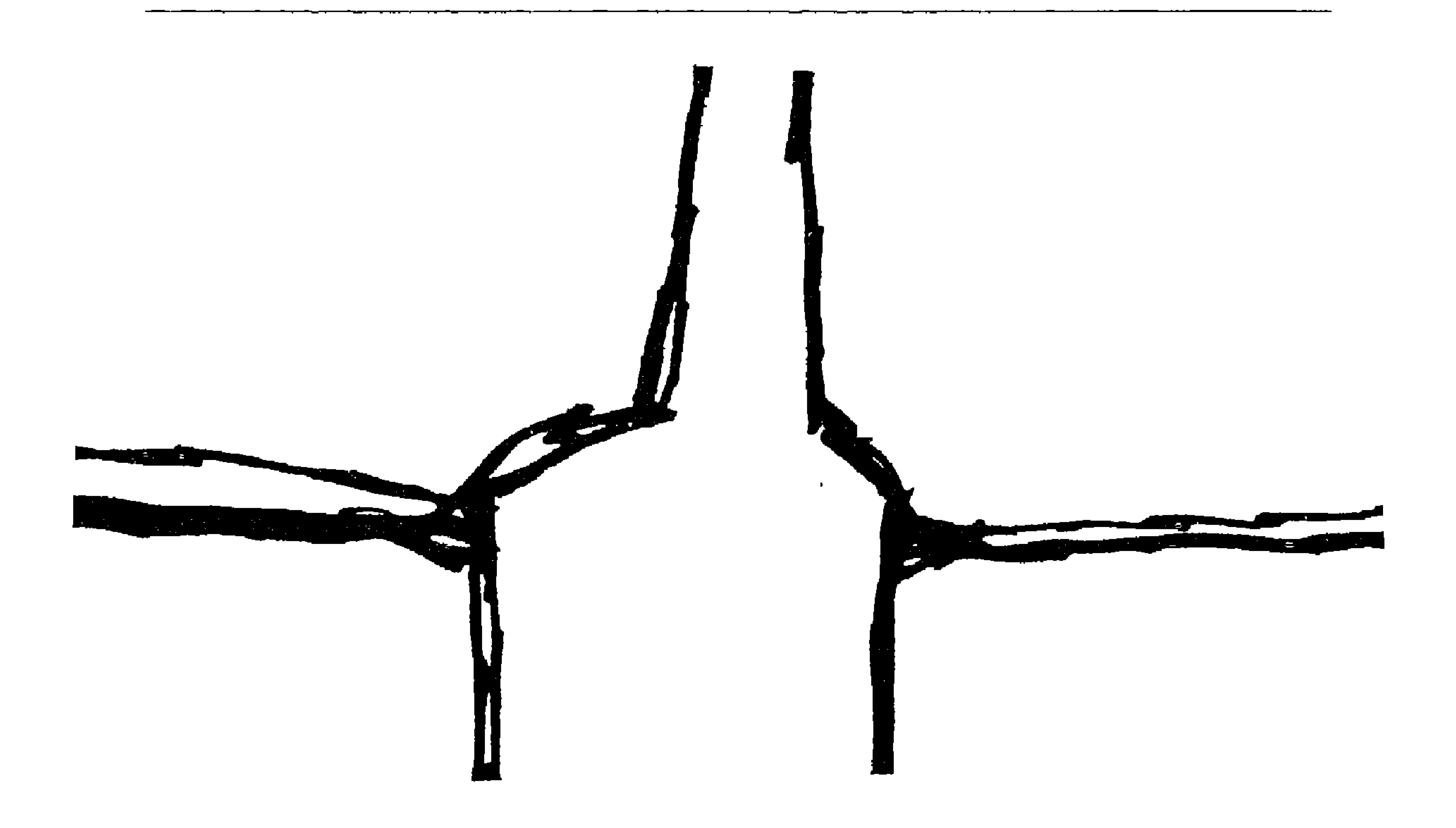
وخضنا ف المعارك
وف كل خطوه دم
وكان الفجر حالك
والليل مازال أتم
وف كل فكره سطر
.. بيورق بالنجوم
والفكرة راكبة قطر
.. قرب خلاص يقوم

بطئ جندا صحيح
.. ممل ف مشيته
.. ولا حتى كان مريح
.. ولا عارف سكته

اهو ماشى والسلام
وساعات يقف ,ساعات
لكن كان الغرام
.. بيجر الأمنيات

لعبنا دور.. نعم
مفيش ف الدور دا شك
حتى لو انسبتهم
أو ظل على المحك

بس انتوا اقدروا المفتون
بقلوب فيها بصيرة



وحسوا بالأتون
والعشق اللى انتصر

دى موسيقى ف الثبات
وعزف مالوش مثيل
وازاى يقولوا مات
صاحب النغم الجميل
دا عايش ف التايات
... وف لحنه المستحيل

وتر وحيد عزف
.. فهزنا الكمان
وقلبنا ارتجف
.. فقلنا له: كمان
(١٤ فبراير ٢٠٠٩)

الرفيـــــيق

صلاح عدلى

جئنا اليوم لا لنؤبن ونكرم فقط عالمين فذين ومناضلين جسورين، وإنما لنتمثل أيضا طريقهما الشاق نحو عالم جديد، ونضالهما الدوؤب في سبيل تحقيق الحرية والعدالة والرقى لشعبنا المصرى العظيم .

ونحن اليوم إذ نحيى ذكرى الراحلين الكبيرين محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس فإننا بذلك نحيى ذكرى هذا الجيل الذهبى من الشيوعيين المصرين، جيل شهدى عطية وذكى مراد ونبيل الهلالى ومبارك عبده فضل وفؤاد مرسى ود.إسماعيل صبرى عبد الله وغيرهم الكثيرين الذين بدءوا المسيرة فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى وظلت بصماتهم وإنجازاتهم واضحة على مختلف مناحى حياتنا الفكرية والسياسية والثقافية ودفعوا ثمنا غاليا وبذلوا تضحيات كبيرة من اجل استقلال الوطن وتحقيق الديمقراطية وإنهاء الاستغلال وتحقيق التنمية الشاملة لبلادنا .

الزميلات، والزملاء، الرفاق الأعزاء

• الكلمة التي ألقاها صلاح عدلي؛ باسم الحزب الشيوعي المصري؛ في حفل تأبين الراحلين ؛ العالم وأنيس؛ بنقابة الصحفيين المصريين ٢٠٠٩/٢/٢١ .

ورغم إن مدخل الرفيق محمود أمين العالم إلى الماركسية كان هو الفلسفة إلا انه لم يتوقف فقط عند مجال البحث النظرى ولكنه دخل بكل كيانه فى أتون النضال الوطنى والطبقى وانتمى إلى الحركة الشيوعية وأصبح احد قادتها فى الأربعينيات والخمسينيات وواجه سنوات السجن والاعتقال والتعذيب الطويلة بشجاعة وصلابة هو ورفاقه .

وعندما اكتشف العالم الخطأ التاريخى لحل الحزب الشيوعى وتيقن من ضرورة وأهمية وجوده المستقل لضمان إنجاز مهام الثورة كانت لدية شجاعة الاعتراف بذلك سواء من خلال النقد الذاتى الذى كتبه فى نقد تجربته مع نظام عبد الناصر أو - وهذا هو الأهم- من خلال دورة الفاعل فى إعادة تأسيس الحزب الشيوعى المصرى رغم أنه كان معزولا سياسيا ومنفيا فى باريس فأصدر فى ذلك الحين النشرات والمجلات وعقد الندوات وشارك فى كافة الإعمال النضالية لتشكيل جبهة وطنية فى مواجهة سياسات الردة والتفريط واتفاقيات كامب دافيد .

وعاد الرفيق محمود عقب اغتيال السادات عام ١٩٨١ مباشرة ليستكمل مسيرته النضالية والفكرية والسياسية حيث تفرغ لإصدار مجلة «قضايا فكرية» التى تعتبر واحده من أهم المجلات الفكرية على المستوى المصرى والعربى ، وخاض تجربة انتخابات مجلس الشعب عام ١٩٨٧ عندما رشحه الحزب ،وشارك فى العديد من الوقفات والمظاهرات للتضامن مع انتفاضة الشعب الفلسطينى والاحتجاج على حبس الصحفيين والدفاع عن حرية التعبير والفكر والإبداع. ولم يمنعه كبر سنه أو ظروف مرضه من المشاركة فى مظاهرة تطالب بفك الحصار عن غزة قبل وفاته بأشهر قليلة. وكان حريصا على التعامل مع الشباب بندية يحترم شطحاتهم الفكرية ونقدهم الحاد ويعطى لهم جزءاً من وقته رغم انشغاله الشديد .

وفى الفترة التى ركزت فيها القوى الوطنية فى السنوات الأخيرة على المطالبة بالإصلاح الديمقراطى والدستورى كان يحذرنا من الاقتصار على الجانب الليبرالى فى مطالبنا الديمقراطية ،وضرورة تميز دورنا كيسار وكشيوعيين فى الانطلاق من مفهوم أوسع للديمقراطية يربطها بالدفاع عن مصالح الوطن ،وبالمطالب الاقتصادية والاجتماعية للكادحين وبالدفاع عن الدولة المدنية العلمانية والدفاع عن حرية الفكر والاعتقاد ... وكان يرى إن صحوة الطبقة العاملة التى برزت فى موجة إضراباتها الكبيرة عام ٢٠٠٦ هى تصحيح للمسار وتأكيد لأهمية دور الطبقة العاملة كقاطرة للثورة والتغيير فى مصر فى تحالفها مع الفلاحين

والكادحين والمثقفين.

وكان الرفيق يردد فى العديد من المناسبات أن الشيوعيين المصرين أصحاب تاريخ يحق لهم إن يفخروا به، وأننا استمرار لمسيرة طويلة تقترب من المائة عام، علينا إن ندرس هذا التاريخ بروح نقدية حتى لا نكرر أخطاءنا.

والماركسية عند محمود أمين العالم نسق مفتوح ومنهج جدلى وإطار فلسفى واقتصادى قادر على استيعاب الجديد وتجاوز ما فات أوانه ، لذلك ظل حريصا فى تحليلاته ومعاركة الفكرية على الانطلاق من الواقع الملموس واحترام الخصوصية والاستفادة من تجارب الخبرات الثورية فى العالم وملاحقة كل جديد فى الفكر ومتابعة منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية وأهمية مراجعة النظرية الماركسية فى ضوء كل ذلك ،،والمعيار الوحيد للحقيقة لديه هو الممارسة الحية فى الواقع الملموس و ضرورة تطوير الفكر على أساسها.

واجتهد العالم فى السنوات الأخيرة فى صياغة مفاهيم محددة للحضارة والثقافة والعلمانية والعولمة والهيمنة والحداثة وما بعد الحداثة، وذلك من خلال كتبه ومقدماته فى ،قضايا فكرية، التى تضمنت معارك فكرية مع مفكرين عرب ومصرين وأجانب اتسمت بالرقى فى الجدال والوضوح والدقة العلمية فى الموقف .

ومن أهم انجازات العالم الفكرية أيضا موقفة الجدلى من التراث حيث كانت نظرته للدين مثالاً لموقف الماركسى الذى ينطلق من احترام الدين وضرورة استلهام جوهرة الانسانى فى استنهاض طاقات الناس الروحية فى نفس الوقت الذى يختلف فيه بحسم مع أنصار الفكر الظلامى المتعصب الذين يتخذون من الدين غطاء لتثبيت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لحماية مصالحهم الرأسمالية الاستغلالية. وظل مناصرا للدولة المدنية العلمانية ورافضا للدولة الدينية المعادية لحرية الفكر والتعبيروالابداع والتفكير العلمى .

وموقف العالم من العولمة يؤكد هذه النظرة الشاملة والجدلية المتجددة للتطورات الكبيرة التى حدثت فى النظام الراسمالى خاصة بعد انهيار المعسكر الاشتراكى ،فكان يعارض أنصار الاستسلام للعولمة المطالبين بالاندماج فيها بشروطها واملاءاتها، كما يعارض فى نفس الوقت أصحاب النظرة المنغلقة الاستعلائية والماضوية التى ترفض الانجازات الإنسانية الفكرية والعلمية والثقافية وتطالب بالقطعية معها بدعوى الخصوصية. وكان يرى إن النظرتين تخدمان نفس الأهداف التى تكرس التبعية والتخلف والهيمنة ،لذلك كان داعيا إلى عولمة بديلة

إنسانية وديمقراطية تستهدف تحقيق الاشتراكية عبر نضال طويل وشاق لتخليص العالم من الكوارث والفقر والحروب والاستغلال، تلك المآسى التى كرستها الرأسمالية طوال تاريخها وتفاقمت بشدة فى مرحلة العولمة. وكان يرى إن هذه العولمة البديلة لابد أن تستند إلى نضال الأحزاب التقدمية والحركات الاجتماعية الجديدة، وكان يولى دورا أساسيا للمثقفين فى هذه المعركة .

لقد ساهم العالم فى بلورة مشروع وطنى نهضوى يحتاج إلى جبهة عريضة من القوى الوطنية والتقدمية ليس فقط فى مصر ولكن أيضا فى العالم العربى حيث يؤكد على أهمية التكامل العربى فى عصر التكتلات الكبرى والنضال من اجل وحدة عربية تقوم على أساس ديمقراطى وواقعى ومتدرج مع أهمية التضامن الاممى مع حركة شعوب العالم وقواه التقدمية فى نضالها ضد الامبريالية والهيمنة الأمريكية والعنصرية الصهيونية .

ولن أتحدث عن الجوانب الأخرى المشرقة فى فكر محمود أمين العالم الفيلسوف والمفكر والناقد والشاعر، فهذا حديث يطول شرحه وسوف يغطيه زملاؤنا من المتحدثين ،ولكنى أريد إن أؤكد إن العالم كان رمزا للمثقف الثورى المخلص لمبادئه ومعتقداته ، المدافع عن قضايا شعبه ،الحريص على انتمائه الحزبى حتى أخر لحظة فى حياته ، المتمسك بوحدة الأقوال والأفعال ،المحافظ على استقلاليته عن السلطة رغم كل المناصب التى تولاها والجوائز التى نالها .

"ليس الموت نهاية الحياة عندما يكون اكتمالا حتميا لعمر ذاخر بالجهد المثمر وتحقيقا لعمل مشرق وبداية لحياة أعمق ".

ولن أجد أفضل ما أختم به كلمتى سوى هذه العبارة للرفيق العالم حيث يقول .....

(اللهم هبنى أن أعرف... أن أعبر.. أن أعمل ... أن أبدع ... أن أحسن النهاية التى تضع البدايات للآخرين وان أحسن البداية التى لا تنتهى بنهايتى) ■

الأنيس

د.ماهر شفيق فريد

توفى محمود أمين العالم فى العاشر من يناير من هذا العام. ولم تكد تمضى على ذلك أيام حتى لحق به الدكتور عبدالعظيم أنيس - موضوع هذه الكلمة - إلي دار لا لغو فيه ولا تأثيم. اقترن اسماهما كما يعرف كل إنسان - منذ اشتركا فى تأليف الكتاب - العلامة «فى الثقافة المصرية» الذى صدرت طبعته الأولى عن دار الفكر الجديد فى ١٩٥٥. وأعادت دار الأدباء بالرباط طبعه فى ١٩٨٨، ثم أصدرت دار الثقافة الجديدة طبعة ثالثة منه فى ١٩٨٩. وعلى هذه الطبعة الأخيرة أعتمد هنا.

كان فكرهما متناغماً وكأنما هما لحنان متسقان فى معزوفة واحدة يسيران جنباً إلى جنب. ولكن كلاً منهما انفرد بصوته الخاص، ومواضع توكيده المغايرة لصاحبه. كانا يتكاملان ولا يتماهيان. لا يغنى هذا عن ذاك وإنما يغتنى هذا بذاك فى تفاعل متبادل، أو - بلغة هيجل - فى جدل خلاق.

كأنما كان على موعد مع رفيق دربه الفكرى فى الممات كما فى الحياة.

اشترك العالم وأنيس فى كتابة فصلين من «فى الثقافة المصرية» إلى جانب مقدمة (يناير ١٩٨٩) لطبعته الجديدة. ثم استقل كل منهما بعدد من الفصول. كتب العالم عن الثقافة المصرية، وحصاد المعركة مع شيوخ الأدب طه حسين والعقاد، وعن الحكيم وعبدالرحمن بدوى

والشعر المصرى الحديث، بينما كتب أنيس عن الأدب الواقعى وعن الرواية المصرية الحديثة (الحكيم، المازنى، محفوظ، الشرقاوى، عبدالحليم عبدالله).

لم ينل أنيس من الشهرة ما ناله العالم، فقد كان أقل إنتاجاً وأقل انخراطاً فى الحياة العامة والمنتديات الأدبية وأشد عكوفاً على عمله فى التدريس الجامعى. ولم يكتب عنه الكثير ووجهت إلى فكره سهام كان بعضها - يا للعجب! - قادماً من جهة اليسار. إن غالى شكرى مثلاً، فى فصل عن «الواقعية الاشتراكية فى النقد العربى الحديث» من كتابه «ثورة الفكر فى أدبنا الحديث» (١٩٦٥) يقول إن فهم أنيس «فهم قاصر لوظيفة النقد الأدبى، وانه تحدث عن مجموعة من الروائيين المصريين فلم يتحدث عن خصائصهم الفنية قط وكأنه يتحدث عن أعمال سياسية محضة. وقد توهم فى بعض الأحيان انه يتحدث عن القيم الفنية حين يصف الشرقاوى قائلاً «فأنت معه تضحك وتبكى كأنك فى الحياة نفسها». وكانت هذه الجملة - وأمثالها - اعترافا حاسما بأن الدكتور لم يستهدف مطلقاً دراسة نقدية، وإنما أراد أن يهدينا بحثاً فى السياسة والمجتمع. وفى حدود هذا الهدف المتواضع لم يتمكن من استقراء النظرة الصحيحة والحكم الصواب».

ليس هذا النقد منصفاً - وإن حوى ذرة من الصواب. لقد كان أنيس يملك حاسة أدبية صادقة وذوقاً رهيفاً - صقله مرانه الرياضى والهندسى - وإن اصطبغ - كما هو معلوم - بموقفه الأيديولوجى. ولا نكران لأن فى كتاباته - خاصة كتاباته الباكرة - ما قد يختلف معه المرء. انه فى كتاب «فى الثقافة المصرية» يذهب، مثلاً إلى أن نجيب محفوظ هو المعبر عن مأساة البورجوازية الصغيرة فى المرحلة الثانية للكفاح الوطنى ضد الانجليز والقصر والاقطاع والرأسمالية المستغلة.

ولكنى أعتقد أن هذا الرأى ينبغى أن يوضع فى إطاره التاريخى ومرحلته الزمنية. وأعتقد أن أنيس والعالم قد عدلا من آرائهما فى ذلك الكتاب على ضوء التطور اللاحق لمحفوظ والحكيم والشرقاوى. فقد اتسعت شبكة محفوظ - بعد رواياته الواقعية الباكرة - لتصور طبقات اجتماعية مختلفة من أدنى درجات السلم الاجتماعى إلى أعلاه مروراً بما بينهما. بل لقد اتجه إلى استيحاء ألف ليلة وليلة وأدب العبث والمأثورات الدينية فى أعمال من نوع «ليالى ألف ليلة وليلة» و«الحرافيش» و«ثرثرة فوق النيل» و«أولاد حارتنا»، بما يقطع بأنه لم يقتصر على تصوير البورجوازية الصغيرة وإنما تعداها إلى تصوير فساد الأرستقراطية والنخبة الحاكمة والطبقات الجديدة التى طغت على السطح فى العهد الناصرى والعهد الساداتى فضلاً عن معاناة من هم فى القاع.

وعندى انه ما من مدخل إلى فكر هذا الروح الأنيس وحياته خير من الفصل الذى كتبه تحت عنوان «التكوين» فى أحد أعداد مجلة «الهلال» وصدر فى كتاب «التكوين: حياة المفكرين والأدباء والفنانين بأقلامهم» (سلسلة كتاب الهلال، فبراير ١٩٩٨). هنا يكتب - بأمانة وتواضع - عن المعالم الرئيسية فى رحلة حياته منذ مولده فى شهر يوليه ١٩٢٣ فى حى الأزهر لعائلة لها ثمانية من الأبناء، متوقفاً عند عدة محطات: خلفيته الأسرية، ذكريات طفولته، تعرفه لأول مرة على معنى الموت عند وفاة جدته (سيفقد فيما بعد زوجته الغالية فى حادث مأسوى يكاد يكون عبثياً)، المدارس التى التحق بها، تفتح وعيه السياسى وخروجه فى العام الدراسى ١٩٣٥/١٩٣٦ فى مظاهرات احتجاجية على تصريح لوزير خارجية بريطانيا صمويل هور (يسقط هور ابن الثور)، تكوينه الثقافى وقراءاته فى دار الكتب بميدان باب الخلق، التحاقه بكلية العلوم لدراسة الرياضيات، تعيينه فى ١٩٤٤ معيداً بكلية العلوم بجامعة الملك فاروق (الإسكندرية)، اهتداؤه إلى الماركسية، بدء دخوله المعتقلات، حصوله على الدكتوراه فى الإحصاء الرياضى من إحدى كليات جامعة لندن واشتغاله أستاذاً زائراً لإحدى جامعاتها، فصله من الجامعة مع لويس عوض والعالم وعبدالمنعم الشرقاوى وفوزى منصور وغيرهم إثر أزمة مارس ١٩٥٤، سفره إلى بيروت للعمل فى فرع معهد الإحصاء الدولى بها، اشتغاله بالصحافة، الخ..

لم ألتق به إلا مرة واحدة، وكان ذلك فى احتفال بمحمود العالم فى عيد ميلاده الماسى أقامته الجمعية الفلسفية المصرية فى قاعة اجتماعات مجلس الكلية بكلية الاداب بجامعة القاهرة، وهو الاحتفال الذى تمخض عن صدور كتاب تذكارى يحمل عنوان «دراسات مهداة إلى محمود أمين العالم» بأقلام عدد من الدارسين والأصدقاء وتحرير الدكتور أحمد عبدالحليم عطية. يومها قدمنى إلى أنيس أحد الحاضرين فرحب بى بمودة صادقة. ولعله أن يكون قرأ لي شيئاً، عبر السنين، لا أدرى وقادنى بأبوة حانية - وإن لم يكن بيننا فارق فى السن يسوغ هذا - إلى مائدة حافلة بالأطايب كى آخذ منها بنصيب. تظل هذه اللحظة هى كل ذكرياتى الشخصية عنه ولكنها كانت - إن لم أكن مخطئاً - كافية كى تنقل لى لمحة عن إنسانيته السخية ومحبته للآخرين وخلوه من أداء النرجسية والغرور. هكذا يذهب الذين يعاش فى أكنافهم ونبقى فى خلف كجلد الأجرب ■

أدب ونقد

أهل العلم وأهل السياسة

صلاح عيسى

اللذين تلازم اسماهما فى ذاكرة الأجيال التى عاصرتهما أو جاءت بعدهما على امتداد أكثر من نصف قرن، ليس أولها أن الاثنين من أبناء عقد عشرينيات القرن الماضى، وليس آخرها أنهما قد اختارا أن يغادرا الدنيا فى أسبوع واحد، وكأنهما يحرصان على هذا التلازم حتى فى العالم الآخر.

فضلا عن الجيل نفسه، فقد كانا ينتميان للطبقة نفسها : ذلك هو جيل أبناء الأفندية طبعة ما بعد ثورة 1919 التى قاد مظاهراتها جيل آبائهم، من صغار التجار والحرفيين والمزارعين ومدرسى المرحلة الأولى ومجاورى الأزهر، وكتبة الدواوين، انحدر أنيس من أب كان يعمل مقاولا صغيرا، وكان العالم ابنا لمدرس أزهرى. وأدرك الأبوان بالفطرة، أن مصر التى ستحررها الثورة من الاحتلال البريطانى، ستكون فى حاجة ماسة إلى من يتولى إدارة شئونها من أبنائها، بعد أن يجلو جيش الاحتلال ومعه جيش الأجانب الذين يحتلون وظائف الإدارة الوسطى والعليا، فدفعوا بهما إلى المدارس المدنية، ليؤهلاهما للدراسة فى الجامعة المصرية، التى ضمتها الحكومة المصرية إليها عام 1925 بعد ميلاد أنيس بعامين، وقبل ميلاد العالم بعام كإحدى ثمار الثورة.

ملامح كثيرة تجمع بين سيرة عبدالعظيم أنيس، ومحمود أمين العالم،

فى طفولتهما وصباهما المبكر، عاش الاثنان فى بيوت تجدد ذكريات

الثورة، وتتابع معارك الجيل الذى ضحى فى سبيلها من أجل استكمال الاستقلال والحفاظ على الدستور الذى كان آحد أهم مكاسبها، فتفتح وعيهما السياسى والوطنى مبكرا، وقادتهما قراءة الصحف إلى قراءة الكتب، ولم يجد العالم صعوبة فى العثور عليها فى مكتبة والده الأزهرى، ووجدها أنيس فى بيت أخواله الذين كانوا قد عرفوا طريقهم إلى الجامعة. وبسبب شغف كل منهما بالمعرفة، فقد شق طريقه إلى دار الكتب، حيث توجد الذاكرة المعرفية للوطن، بحثا عن النادر منها، أو ما تعجز مواردهما عن شرائه.

وقادتهما القراءةفى الأدب إلى كتب الجيل السابق من المنورين الذين مهدت أعمالهم للثورة وواكبتها : لطفى السيد، وطه حسين، والعقاد، وسلامة موسى، وإسماعيل مظهر، وجورجى زيدان، ويعقوب صروف، وحافظ عوض، وأحمد أمين، وشوقى وحافظ ومطران ... وتابعا المناظرات الفكرية التى احتدمت خلال الثلاثينيات تطرح سؤال النهضة : هل تتقدم مصر بالعلم أم بالأدب؟ بالاتجاه إلى الشرق أم إلى الغرب؟ بالديكتاتورية أم بالديمقراطية؟ وهل هى فرعونية أم عربية؟ ما العلاقة بين العلم والدين؟ كيف نوفق بين نظرية النشوء والارتقاء وبين ما ورد فى الكتب المقدسة؟

ولابد أن أسئلة النهضة وإشكالياتها كانت تضغط على كل منهما بشكل غير واع، حين جاء الأوان الذى أصبح عليه فيه أن يختار ما يدرسه فى الجامعة، ومع أنهما كانا يفضلان الجمع بين دراسة العلم والفلسفة، إلا أن النظام الجامعى الذى لا يجيز ذلك، اضطر انيس لاختيار الرياضيات لدراسته المنظمة، على أن يعتمد على قراءاته الخاصة فى دراسة الفلسفة، واختار العالم أن يدرس الفلسفة، ولكن شغفه بالعلم دفعه لاختيار موضوع لمشروع أطروحته للدكتوراه يجمع بينها وبين الفيزياء.

فى بداية الأربعينيات، وفى ظل الحرب العالمية الثانية، التى حولت مصر إلى معبر لجيوش الحلفاء، أدرك جيل العشرينيات أن ثورة 1919 قد أعطت كل ثمارها بتوقيع معاهدة 1936 استقلال مقيد بمحالفة عسكرية مع البريطانيين، ونظام ملكى شبه دستورى ونصف ديمقراطى، وشعب تعانى أغلبيته الفقر والجهل والمرض. وفى جامعة الإسكندرية، حيث التحق أنيس بقسم الرياضيات بكلية العلوم، وفى جامعة القاهرة، حيث التحق العالم بقسم الفلسفة بكلية الآداب، كان سؤال النهضة يشغلهما، كما يشغل غيرهما، وكان الجيل منذ منتصف الثلاثينيات قد انقسم بين ثلاثة تيارات، ظل الأول منهما مخلصا للحلم الوطنى الليبرالى فتمسك بمواقعه بين صفوف حزب الوفد، بينما حلم الثانى بإحياء مجد الماضى، سواء فى صورة خلافة إسلامية راشدة، وهو ما كانت جماعة الإخوان المسلمين تدعو إليه، أم

فى صورة الدعوة لإحياء الحضارة الفرعونية، وهو ما كانت حركة مصر الفتاة المفتونة بالصعود السريع للفاشية والنازية، تبشر به، وترفع شعار مصر فوق الجميع.

وكان المشروع الماركسى فى طبعته الستالينية، هو مشروع النهضة الرابع الذى طرح نفسه خلال سنوات الحرب بعد أن فشلت طبعته اللينينية، بتصفية الحزب الشيوعى المصرى الأول عام 1923 بعد تأسيسه بعامين. وكان طبيعيا أن يجذب هذا المشروع إليه شابا رومانتيكيا يتعاطف مع الفقراء الذين لم يكن مستوى أسرته الاقتصادى يرتفع عنهم إلا بدرجات قليلة، مثل عبدالعظيم أنيس. وعلى العكس من محمود أمين العالم، الذى قاده تخصصه فى الفلسفة، إلى موقف مثالى مغرق فى مثاليته، فظل يراوح مكانه فى الصف الوطنى الديمقراطى لسنوات، حتى حسم أمره فيما بعد، فقد قاد التخصص فى الرياضيات أنيس إلى الماركسية، بعد أن قرأ أصولها الفكرية والاقتصادية، وبهر بالنتائج الفلسفية التى استخلصها إنجلز فى كتابه جدل الطبيعة من اكتشافات العلوم الطبيعية.

وهكذا اندفع عبدالعظيم أنيس فى تيار الحركة الشيوعية المصرية خلال النصف الثانى من الأربعينيات : يجند الأنصار ويقود المظاهرات الطلابية ويسهم فى تنظيم الإضرابات العمالية، وككل أصحاب الرسالات، فقد كان معلما بالسليقة، يملك جاذبية آسرة، تمكنه من التأثير فى الآخرين، وقدرة عقلية مذهلة على تبسيط أعقد الأفكار، فاندفع يحاضر فى كل مكان، فى مدرجات الجامعة التى كان قد عين معيدا بعد تخرجه فيها، وفى خلايا التنظيم الشيوعى الذى انضم لعضويته، وفى المنتديات الثقافية العديدة، التى أسستها المنظمات الشيوعية للترويج لمشروعها، وهو ما ظل يفعله طوال سنوات عمره، وهو بين جدران السجن، يعلم الأميين مبادئ القراءةوالكتابة فى الصباح، ويلقى عند الظهر دروسا فى الإحصاء والرياضة البحتة، كان يتابعها فضلا عن المؤهلين لفهمها عمال وفلاحون من كوادر الحركة الشيوعية، وفى المساء يلتف الجميع حوله، وهو يلخص رواية من الأدب العالمى.

ولأن الحلم فقد بعض ألقه، بسبب الصراعات التنظيمية التى مزقت الحركة الشيوعية المصرية، فإنه ما كاد يغادر المعتقل، بعد عامين قضاهما فيه، حتى شد رحاله إلى بريطانيا ليستكمل دراسته، ويعود ليعمل مدرسا بالجامعة، ويواصل جهده فى التبشير بالحلم الاشتراكى من دون ارتباط بتنظيم معين، ويلتقى لأول مرة عام 1953 مع العالم الذى كان قد بدأ يجنح يسارا، وكانت نقطة الاتفاق الأول بينهما هى شكوكهما المتبادلة فى موقف قادة ثورة 23 يوليو من الديمقراطية، أما الثانية، فكانت ولع كل منهما شأن كل أصحاب الرسالات بأن يكون معلما، لا يكتفى

بتلاميذه فى الجامعة، بل يسعى لمخاطبة القاعدة العريضة من الناس، عبر الصحافة، التى كانت آنذاك جامعة المجتمع كله.

ولم تكن مصادفة أنهما كانا يكتبان فى المنابر نفسها، ويتناوبان الكتابة فيها، وتفرغ كلاهما للعمل فى الصحافة بين عامى 1956 و 1958 فى أعقاب فصلهما من الجامعة، بسبب مشاركتهما فى المطالبة بعودة الجيش إلى ثكناته، أثناء أزمة مارس 1954 فعمل أنيس رئيسا لقسم السياسة العربية والدولية فى المساء جريدة اليسار التى أصدرها خالد محيى الدين بإذن من عبدالناصر خلال مرحلة التحالف الأولى بين الطرفين بين عامى 1956 و 1958 ، وعمل العالم مديرا لتحرير الرسالة الجديدة المجلة الثقافية التى كانت تصدر عن الدار الصحفية التى أنشأتها الثورة، وفى فترة التحالف الثانية بين النظام وبين الشيوعيين بين عامى 1964-1969 تبادل الاثنان موقع رئيس مجلس إدارة دار النشر التابعة للدولة، وتولى العالم إدارة مؤسسة أخبار اليوم، وشارك أنيس فى إدارة دار المعارف.

ويلفت النظر إلى إن الإثنين إحتفظا بصداقتهما، على الرغم من التباين فى موقفهما من العمل التنظيمى، فأنيس الذى عاد للانضمام للحزب الشيوعى عند توحيده عام 1958 واعتقل خلال الفترة بين 1959 و 1964 ما لبث أن اعتزل النشاط التنظيمى، بعد حل التنظيمات الشيوعية لنفسها لينضم أعضاؤها كأفراد إلى الاتحاد الاشتراكى، بينما عاد العالم إلى هذا النوع من النشاط عند إعادة تأسيس التنظيمات الشيوعية فى منتصف السبعينيات وحتى رحيله، بل إن أنيس الذى إنضم إلى حزب التجمع عند تأسيسه عام 1976 ما لبث أن جمد عضويته فيه بسبب خلاف حول موقف الحزب من التنظيمات الفلسطينية، مكتفيا بدوره الديمقراطى العام.

فى حين يبدو العالم فى كتاباته النظرية والفكرية وحتى النقدية، شيوعيا أرثوذكسيا، على عكس مواقفه السياسية التى كانت تتسم بالمرونة، وإلى حد ما بالبراجماتية، فإن أنيس الذى كان أكثر تحررا من القيود النظرية، كان متشددا فى مواقفه السياسية، صلبا فى الدفاع عنها، وهو ما يفسره محمد سيد أحمد صديقهما المشترك بالتناقض بين خط أهل العلم، الذين يشغلهم ما ينبغى إن تكون عليه الأمور، حتى لو بدا ذلك مستحيلا، وخط أهل السياسة الذين يرون أنها فن الممكن.

أما المؤكد فهو أننا فقدنا رجلين من طراز فريد، كان لهما ظل أخضر وارف، غطى خريطة الأمة على امتداد أكثر من نصف قرن، وسيظل مؤثرا على الرغم من توالى السنوات ■

تطور الرؤية النقدية
عند محمود أمين العالم

د / صلاح السروى

لقد مرت الرؤية النقدية عند محمود أمين العالم بعدة مراحل

عكست بوضوح كدحه الفكرى باتجاه الوصول إلى أكثر الصيغ المفهومية - الأدبية اتساقا مع قناعاته النظرية - السياسية والفلسفية . فمشروع (العالم) النقدى لم يكن له أن ينفصل بأى حال عن مشروعه السياسى - الفلسفى النضالى ، وهو المشروع الذى ينطلق من نظرة جدلية كلية للعالم ، تنفى الانفصال وتنكر التجزؤ . ومن هنا كان النضال على الجبهة الثقافية مرتبطا ارتباطا وثيقا بالنضال على كافة الجبهات ، ان لم يكن مؤسسا لاتجاهاتها ومرسخا لقناعاتها وموجها لخطواتها . وعلى الرغم من كون الثقافة تمثل "البناء الفوقى" أى أنها مجرد ناتج عن الوضع الاجتماعى الاقتصادى الممثل "للبناء التحتى" ، إلا أن أهميتها لا تقل فى التأثير على مجريات الصراع الطبقى والاجتماعى والوطنى عن أية أدوات أخرى ، بل ربما سبقت هذه الأدوات ، فهى الوعى الذى ستنطلق بمقتضاه كل أشكال الفعل التغييرى المتصور . فإذا كان النضال السياسى يستهدف القضاء على الاستغلال والقمع والقهر والانتصار للكادحين من العمال والفلاحين باعتبارهما الطبقتين الأكثر فاعلية فى عملية التغيير التاريخى والممثلتين للقوى التاريخية الاستراتيجية الدافعة نحو مجتمع أكثر

حرية وعدلا . فان ذلك يستوجب بالضرورة محاربة الأفكار والمفاهيم والقيم التى ترسخ مصالح القوى المعوقة لحركتهما فى اتجاه صنع هذا التاريخ . مثل التقليد والاتباع وتقديس الماضى وشرعنة العبودية والاستغلال ..إلخ . لصالح الانتصارللأفكار والمفاهيم والقيم الممثلة لثقافة التقدم والعقلانية والعلم والحرية والعدل

إنها ،إذن المعركة الكبرى الدائمة - فيما يرى حسين مروة - .. "بين كل جديد وكل قديم ، بين ثقافة تنعكس فيها آراء ومفاهيم وأفكار وقيم تسند مصالح فئة من المجتمع يكاد يتلاشى دورها التاريخى وينقضى . وبين ثقافة تنعكس فيها آراء وأفكار ومفاهيم وقيم تريد أن تدل على مكان فئة تلد فى المجتمع جديدا ، لكى تنقل هذا المجتمع الى دور تاريخى جديد ، ثم لكى ترفع هذا المجتمع الى منزلة أرحب وفضاء أوسع وإنسانية أسمى وحياة أجمل وأفضل ." (١)هذا الفهم للعمل الثقافى العضوى ، غير المنفصل عن العمل السياسى المباشر ، بل والمؤسس لمفاهيمه والقائد لوعيه ،هو نفسه ما يؤكده العالم وأنيس فى مقدمة الطبعة الأحدث من كتابهما "فى الثقافة المصرية " قائلين :

"فى الأربعينيات وبداية الخمسينيات ، ومع مخاض النضال الوطنى والاجتماعى للشعب فى مرحلة تاريخية جديدة ، أخذت تتجلى فى بنية الأدب وأساليبه مظاهر أخرى تتجاوز مدرسة المهجر ومدرسة أبوللو ، متواكبة ومتفاعلة مع نهوض حركة وطنية ديمقراطية ذات آفاق اجتماعية جديدة ، طبعت هذا الإبداع الجديد بطابع واقعى "(٢). فالكشف عن طبيعة الأدب الجديد ، أو "الظواهر الجديدة" فى الأدب لم يكن منفصلا عن الكشف عن طبيعة الواقع السياسى الجديد ، والمؤلفان لم يكونا ليعكسان .."هذا المسعى النظرى النقدى فى الأدب فحسب ، وإنما كان يتضمن (أى مقال الأدب بين الصياغة والمضمون الذى ورد فى الكتاب المذكور) مسعى نقديا اجتماعيا وسياسيا كذلك . فلقد كانت معركة الديمقراطية محتدمة فى مصر آنذاك ، وكان مقالنا ذو الطابع الأدبى الخالص سلاحا من أسلحتها "(٣) وهو مايعنى أن الحركة الأدبية النقدية الجديدة انما جاءت لتترجم وضعية مثلتها مرحلة تاريخية جديدة ، كانت ذاخرة بالوعود والآمال الكبار فى التحرروالانعتاق واحتدام الصراع بين قوى آفلة ، تحارب معركتها الأخيرة وأخرى بازغة تكاد تقبض على الحلم بيديها ليستحيل واقعا متجسدا تكاد تراه العين وتلمسه إليد . ومن هنا كانت ضرورة استخدام كافة الأدوات والأسلحة ، ومن بينها سلاح الوعى - الفكر والفن والأدب ، سلاح الثقافة .

هذا الارتباط الوثيق بين الأدب والواقع . يمكن ترجمته فلسفيا وسياسيا بالارتباط بين البناء الفوقى والتحتى ؛ ويمكن ترجمته كذلك جماليا ونقديا بالارتباط بين الشكل والمضمون . فالوعى لايمكن إلا أن يكون مرتبطا بالوجود ، وإذا كان الأدب شكلا من أشكال الوعى ، فإن الواقع يمثل الوجود . ومن ثم يصبح التغيير الذى يمكن أن يلم بطبيعة الوجود متطلبا لتغيير مماثل فى أشكال الوعى . فالوعى هو "شكل" الوجود ، والوجود هو "مضمون" الوعى . والعلاقة بينهما حتمية وإن كانت ذات طابع جدلى متغير. يحكمه قانون (الوحدة والصراع). والسؤال الآن هو كيف تجلت هذه الرؤية فى نطاق الممارسة النقدية عند العالم ؟ وهل اتخذت شكلا واحدا أو طابعا ثابتا لم يتغير أم تطورت وتحولت ؟ وما ملامح هذا التغير ومراحله ؟

من الواضح أن العلاقة بين شكل الأدب ومضمونه (وهو أساس المعركة التى نشبت فى أوائل الخمسينيات) لم تكن بذات الوضوح . الذى رأيناه بين الأدب والواقع ، فلقد لاحظنا أن هناك تسميات متعددة يتم اطلاقها فى مراحل متعاقبة .. من قبيل .. "التكامل العضوى ".. و"التآزر" (٤) . ثم بعد ذلك يتم طرح مفهوم مثل .."التداخل"(٥) وتارة ثالثة يطرح مفهوم "العلاقة الجدلية" (٦) .

إن رؤية محمود أمين العالم للأدب لم تتوقف عندما طرحه ، هو وأنيس . فى بداية خمسينيات القرن الماضى . بل تطورت وتغيرت وأخذت مناحى لم تكن مطروحة من قبل . وذلك إما نتيجة لارتقاء الوعى النظرى (للعالم) وزيادة خبرته ومعرفته بخصائص العمل الأدبى ، وطبيعته النوعية التى تجعله يحمل داخله قانون تطوره النوعى الخاص ، وان بغير انفصال عن قانون الحكة الاجتماعية العام .واما نتيجة للتطورات الهائلة التى طرأت على النظرية النقدية - مناهجها واجراءاتها ، خلال الربع الأخير من القرن العشرين ، وكان لزاما عليه أن يتفاعل معها على نحو ايجابى ، يثرى فيه رؤيته النقدية ويطورها ، وفى نفس الوقت يسهم فى الارتقاء بالنظر النقدى العربى الذى كاد أن يسلم نفسه بشكل كلى للاتجاهات الشكلانية التى تكاد تبتر أية علاقة بين المنتج الأدبى وخارجه .

وستحاول هذه الورقة دراسة مراحل تطور هذه الرؤية النقدية عند محمود أمين العالم ، وذلك عبر المحاور التالية :

١ - تآزر الشكل والمضمون .

٢ - تداخل الشكل والمضمون .

٣ - جدل الشكل والمضمون .

كان للمقال الذى نشره الدكتور طه حسين فى جريدة الجمهورية القاهرية بتاريخ ٥ / ٢ / ١٩٥٤ دور كبير فى تفجير هذه المعركة الأدبية الكبرى التى نشبت بينه من ناحية ، ومحمود أمين العالم و عبد العظيم أنيس من ناحية أخرى . فقد قدم طه حسين فى هذا المقال تصوره لطبيعة الأدب الذى يعبر - للغرابة - عن تصور المدرسة الكلاسيكية . وهو يرتكز على أن : " اللغة هى صورة الأدب ، وأن المعانى هى مادته" ، الى جانب عنصر ثالث لم يفصل القول فيه ولم يحدد موقعه بين العنصرين السابقين ، وربما ذكره بتأثير من وعى رومانتيكى مكتسب من ثقافته الأوربية ؛ أسماه "عنصر الجمال" (٧)(نص المقال منشور فى جريدة أخبار الأدب بتاريخ ١٨/ ١/ ٢٠٠٩). وربما كان يقصد أنه ناتج عن العنصرين السابقين : أى اللغة والمعانى .

وخطورة هذه النظرة تكمن فى أنها تقوم على أساس الفصل بين اللغة والمعانى ، بحيث يمكن تصور أن اللغة إنما هى وعاء فارغ يمكن ملؤه بأية معان . وأن المعانى بدورها إنما هى أطياف هائمة تبحث لها عن لغة تتجسدها أو شكل تتلبسه . وهذا أمر يتأبى على التصور المجرد . أو الواقعى ، فإذا جردنا اللغة من معانيها فكيف يمكن أن تكون ؟ وكذلك الأمر لو جردنا المعانى من ألفاظها ، فكيف يمكن أن نتصورها أو أن ندركها ؟

إنها نواتج تلك الرؤية المثالية التى تقوم على الفصل بين الروح والأشكال ، وتتصور عالما مثاليا هيوليا متعاليا ، ولكنه قد يتعين فى أشكال محددة (٨) .

وفى مقابل هذه النظرة تقوم الجمالية الماركسية على إقامة وحدة جدلية بين الشكل ومضمونه ، فالأشكال عند ماركس تتحدد تاريخيا بنوع المضمون الذى تحققه وتجسده ، وهذا ما يجعلها تتغير وتتحول بتغير المضمون . فليس .. "للشكل أى قيمة ما لم يكن شكلا لمضمون "(٩) . والعكس صحيح . فالجمالية الماركسية تقوم على ابراز الصلة الجدلية بين الشكل والمضمون وسط واقع لاينى يتحول ويتغير طارحا معطيات وشروطا تاريخية جديدة . وبالتالى مفاهيم ورؤى

وتصورات جديدة . ولقد حاول العالم التعبير عن هذا الفهم الماركسى على نحو متطور ونام . كما سبق القول .

١ - تآزر الشكل والمضمون :

لقد استفز مقال طه حسين السابق الاشارة إليه محمود العالم وعبدالعظيم أنيس . فقاما بالرد عليه بمقال . عنوانه : "الأدب بين الصياغة والمضمون" (أدرج ضمن كتاب : "فى الثقافة المصرية"١٩٥٥) ؛ حيث يرى الكاتبان ، بداية . أن قصر مفهوم "الصورة" على اللغة فقط ، وقصر مفهوم "المادة" على المعانى فقط ، لا يكشف عن ادراك سليم لحقيقة الظاهرة الأدبية .. "ذلك أن اللغة أداة من أدوات الصورة . فان قصرنا الصورةعلى اللغة ، فقدتحدثنا لاعن الصورة . بل عن الأسلوب"(١٠). حيث تجرى التفرقة هنا بين الصورة والأسلوب ، أى بين الصورة والطريقة الفنية التى تتجسد بها الصورة . فتصبح اللغة أداة فنية أسلوبية ، تقوم على تجسيد الصورة ، وليست هى الصورة نفسها . إذن ماذا يمكن أن نعنى بالصورة ؟ ان الصورة هى عملية التشكيل الأدبى ذاتها ، انها تلك العملية الداخلية الفاعلة .. "فى قلب العمل الأدبى لتشكيل مادته وابراز مقوماته"(١١) . فالصورة كيان وظيفى - بناء تشكيلى متفاعل ومتحول أبدا . ان الصورة هى تلك التى تتناول المادة وتعيد بناءها وترتيب عناصرها ، محولة اياها الى جسد متعين فى شكل محدد له أبعاد واضحة . ووجود منظور محدد أو وجهة نظر واضحة هو الذى يحكم ويوجه هذا التشكيل . ولعل فى هذا مايتفق وما قاله المنظر الماركسى جورج لوكاتش فى كتابه البكر : "تاريخ تطور الدراما الحديثة" (١٩١١) من أن.."الشكل هو العنصر الاجتماعى الحقيقى فى الأدب"(١٢) . أما المادة فهى ، ببدورها ، ليست المعانى ، فيما يذهب طه حسين ، بل هى أحداث .."لا من حيث هى احداث وقعت بالفعل ، ويشير العمل الأدبى الى وقوعها ، بل هى أحداث تقع وتتحقق داخل العمل الأدبى نفسه ، ويشارك التذوق الأدبى فى وقوعها وتحققها ، وهى بدورها عمليت متشابكة متفاعلة يفضى بعضها الى بعض افضاء حيا لا تعسف فيه ولا افتعال"(١٣) . من هنا تصبح المادة هى مكونات العمل الأدبى ووحداته الممثلة لكينونته وجوهره ، انها عناصره الجوهرية التى يجرى تشكيلها وتحويلها على يد الأديب . ويمثل العالم لهذا المفهوم بمثالين : الأول من الرواية . والثانى من الشعر . فى مجال الرواية يختار رواية "عوليسيس" لجيمس جويس . ويقوم بتحديد مضمون الرواية أو مادتها بأنه .."هو الانهيار والتناقض والتفسخ

والانحلالالذى تتميز به الحضارة الحديثة وأبطال الرواية عناصر مريضة مهزومة يحركها الانحراف والشذوذ وتجمعها الفجيعة الحضارية الواحدة"(١٤) . اى أن مادة الرواية هى مايتمثل فى مفاهيم وتحولات ورؤى وتصورات تحكم حركة الشخصيات وتوجهها ، من ناحية . وتعتمل فى عوالمهم الداخلية ، من ناحية أخرى ، على نحو يتوازى مع ما يحدث فى الواقع الخارجى وينتج عنه فى ذات الآن .

وبالطبع يأخذ العالم على جويس أنه قد أبرز جانبا واحدا ، ألا وهو الجانب المنهار من الحضارة الغربية ، دون الجوانب الأخرى .."المترقية والنامية من هذه الحضارة " (١٥).. حسب قوله ، وهو الأمر الذى ينطبق على (تى . اس . إليوت) ، فى مجال الشعر، خاصة فى قصيدته "الأرض الخراب"

ان مادة العمل الأدبى ، إذن ، يمكن أن تكون متضمنة فى مفهوم "المنظور" perspective الذى طرحه (جورج لوكاتش) وطوره من بعده (لوسيان جولدمان) الى مفهوم "رؤية العالم" worldvision ، حيث يمثل الوعى بالذات والوجود والرؤية المتطورة النافذة للعالم ، الخاصة بالكاتب مدخله الرئيسى و مادته الأساسية لبناء عمله الفنى . وبدون هذا الوعى وتلك الرؤية لن يجد الكاتب مايقوله ، أو سيقول ما لن يستطيع النفاذ الى الوضعية الانسانية فى أكثر تعيناتها صدقا وحقيقية . حيث يمثل الكاتب هنا بوعيه وانحيازاته ليس مجرد ذاته المفردة . لكن يمكنه أن يعبر عن طبقة اجتماعية أو شريحة انسانية كاملة (١٦) .
ورغم أن طه حسين يؤكد على أن صورة الأدب ومادته لايفترقان ، أو هما شىء واحد (١٧) ، وهو مايتفق معه فيه (العالم) ظاهريا وجزئيا ، الا أنه ينفى كون الأدب مجرد تكوين من ثنائية اللغة والمعنى ، كما أسلفنا . كما أن الصورة والمادة - على اطلاقهما - ليستا مجرد عنصرين متجاورين ومتلازمين . بل هما ، معا ، يمثلان مركبا عضويا .. "يتألف من عمليات بنائية تتكامل فيها الصورة والمادة تكاملا عضويا حيا "(١٨) .

ان هذا التكامل هو نفسه ما يسميه "تآزرا" فى موضع آخر ، ويعتبر أن وجود هذا التكامل و التآزر انما هو من سمات الأعمال الجيدة ، أما الأعمال الرديئة فهى التى تختل فيها هذه العلاقة ، ويمثل على ذلك بالسيريالية والمستقبلية (١٩)



ولعلنا نلاحظ فيما سبق سيطرة النظرة القائمة على التمييز الحاد بين الصورة والمادة . خاصة عندما يقول : "ان الأدب صورة ومادة ما فى هذا شك"(٢٠) ، وأن العلاقة القائمة بينهما انما هى علاقة عضوية قائمة على التآزر والتكامل .. مع ملاحظة ما فى هذه العلاقة من استقلال نسبى لكل منهما عن الأخرى ، بحيث يمكننا تصور أنهما يمكن ألا يتآزرا أو يتكاملا فى الأعمال الضعيفة (التى تركز على الشكل دون غيره) وهو على أى حال لم يشرح هذا الأمر . واكتفى بذكر مثالى : السيريالية والمستقبلية .

ان هذه النظرة ، ان كانت منطلقة من أسس ماركسية – مادية جدلية ، الا أنها تبدو كما لو كانت تكتشف مناطق جديدة وتبشر برؤى غير معروفة من قبل . وأظن أن العالم هنا – فى هذه المرحلة – لم يكن يقد أتيح له الاطلاع على على دراسات بليخانوف أو لوكاتش وكبار منظرى الأدب فى الماركسية ، بحيث جاءت نظرته تركيبية ، أكثر منها جدلية .

ولسوف تتواصل هذه النزعة فى المرحلة التالية ، وان كان على نحو مختلف .

٢- تداخل الشكل والمضمون :

ومن جديد يثير محمود أمين العالم قضية الصورة والمادة فى كتابه "تأملات فى عالم نجيب محفوظ"(١٩٧٠) لكى يعدل قليلا من ما توصل إليه سابقا باتجاه محاولة ايجاد علاقة أكثر عمقا وأكثر وثاقة بين (الصورة والمادة) ، فهما هنا ليستا متكاملتين ومتآزرتين ، بل ان الصورة لا يمكن فصلها عن المضمون ، تكاد تتماهى معه . فيشكلان . معا وجودا واحدا لايمكن تجزئته ولا التفريق بين عناصره . يقول : " ان صورة الشىء لا تكاد تنفصل عن حقيقة ادراكه بل عن حقيقة وجوده كذلك "(٢١) . فما من عمل "بغير صورة ، بغير شكل ، بغير صياغة" ، حسب قوله مستطردا فى صدر الصفحة التى جاء فيها الاقتباس السابق . مسويا فى ذلك بين كونه من أنصار الفيلسوف الألمانى (ايمانويل كانت) المثالى القائل بأن الانسان هو الذى يضع الحدود الادراكية والتصورية للأشياء ويصوغ لها مقولاتها وقوالبها . وبين كونه مختلفا عنه عندما يعتقد بأن صورة الشىء ومقولته الادراكية والتصورية ، جزء من من طبيعته الموضوعية . مقرا بأنه فى كلتا الحالتين لا يمكن معرفة الأشياء بغير صورها . فتصبح صورة الشىء غير قابلة للانفصال عن حقيقته ، بل هى جزء من هذه الحقيقة . ورغم الفارق الواضح بين النظرتين ، من حيث الأولى تتحدث عن مجرد الادراك

الذى قد يكون ذا مستويات ودرجات مختلفة . لاعن الحقيقة الموضوعية التى توجد بذاتها وفى ذاتها بصرف النظر عن درجة الوعى بها . الا أن هناك تأكيدا واضحا فى نهاية المطاف ، يقضى بعضوية العلاقة بين الصورة والشىء . الا أنه يردف ذلك مباشرة بقوله : "فهناك من الأشياء ما يرتبط وجودها ارتباطا وثيقا بصورتها ، وهناك من الأشياء ما قد تتخلخل فيه هذه الرابطة ولا تستقر "(٢٢). ان حرف "الفاء" فى كلمة "فهناك" يسمى فى اللغة العربية "بالفاء الاستئنافية" . وهى تعنى الاقرار بما جاء قبلها . ومن ثم عليها الاتيان بالدليل على صحته بما بعدها . غير اننا نلاحظ تزعزعا واضحا فى العبارة الأخيرة فى علاقتها بما جاء قبلها . فالعالم يحاول التدليل على صحة أن هناك من الأشياء ما قد تتخلخل فيه الرابطة بين الصورة والشىء بالفارق بين الشجرة والسحابة ، فالشجرة يرتبط شكلها بوظيفتها وهو شكل مستقر ومستمر باستمرار الوظيفة واستقرارها ، أما السحابة فان قابليتها لتغيير شكلها لا نهاية له .. " فقد تكون وجه طفل ، أو هيكل امرأة عجوز ، أو عربة غليظة ، أو زهرة شفافة"(٢٣)، ثم يعود بعد ذلك ليقرر أن هذا التغير الصورى - الشكلى للسحابة ، انما هو فى النهاية يمثل صفة شكلية لها ورمزا من رموزها . وهنا يحق لنا أن نتساءل عن جدوى مقارنتها بالشجرة مادامت الحصيلة واحدة فى النهاية .

ويبدو أن هذا الأمر كان استطرادا تفصيليا املاه السياق دون حاجة ضرورية إليه . لأنه يردف ذلك ، فى الفقرة التنالية مباشرة ، باعادة التأكيد على العلاقة الصميمية بين الشكل والوظيفة ، مدللا هذه المرة "بالعجلة" ، من زاوية الارتباط الحتمى بين شكل العجلة ووظيفتها . فالاستدارة ليست مجرد اطار خارجى ، بل هى ملمح أساسى من وجودها .. "ويحقق وظيفتها ، ويبرز فاعليتها ، وبغير هذه الاستدارة الشكلية ، تفقد العجلة وجودها (..) بل تصبح موضوعا آخر ، وظيفة أخرى ، وجودا آخر"(٢٤) . وهو الأمر الذى يمكن أن ينطبق على على باقى الموجودات الأخرى ، من الدبوس الى الصاروخ ، بحيث يصبح أى تغيير فى شكل المادة بمثابة تغيير فى موضوعها كذلك .

ورغم الرائحة الأرسطية التى يمكن أن نشتمها فى هذا الطرح ، من حيث اعتبار أرسطو أن الصورة أهم علة من علل وجود الشىء . ورغم اقرار العالم بقرب هذا الطرح من أرسطو ، الا أنه يعمد الى الكشف عن طبيعة العلاقة الكمية التى تربط بين العلل الأربع لوجود الشىء ، ومنها علة الصورة ، واغفال

علاقة التفاعل القائمة بينها . ولكن بما لايخفى اعجابه بهذا الاحتفال بالصورة عند آرسطو واذا جئنا لتطبيق هذا الطرح على الأدب فانه يؤكد آن الصورة أو الشكل تكاد تمثل جوهر العمل الأدبى . يقول : "ان الصورة آو الشكل أو الصياغة فى الأعمال الأدبية والفنية تكاد تكون جوهر ما يكون به الأدب أدبا والفن فنا .

وهنا يصبح الشكل بالنسبة للأدب والفن هو الذى يجعل منه أدبا وفنا . ذلك أن موضوعات الأدب متوارية وكامنة فى نفوس الناس أو واقعهم الاجتماعى ، ولكنها عند هذا الحد لاتعد أدبا أو فنا . أما اذا توفر لها الأديب والفنان وقام على طرحها وتشكيلها فى قصيدة أو قصة أو ماشابه فانها عند ئذ تعد أدبا أو فنا . ان هذا التشكيل وهذه الصياغة هما الفارق بين كون هذا الموضوع أدبا - فنا أو غير ذلك . واذا كانت جميع أجناس الأدب والفن فيها من الطبيعة والوجود المعاش ما يمثل موضوعا لها . فان الموسيقى تتفرد هنا لأن موضوعها هو شكلها فى نفس الآن ، وهى .."علاقات شكلية بين الأصوات وتنويع وتنمية لها وارتفاع بها الى مستوى رائع من البناء التجريدى"(٢٥) . والعالم لايقصد بالطبع ان الموسيقى نوع معزول عن الواقع الانسانى . انما يأتى بها باعتبارها مثالا يمكنه أن يكثف فى دلالته تلك الوظيفة المانحة للشكل أو الشكل المؤهل للوظيفة . حيث لايمكن الفصل بين الشكل والمضمون . وان كان يميز بينهما فقط .

ثم يعود للتأكيد على النقطة التى سبق ذكرها فى المحور الأول من هذه الورقة من أن الأعمال الجيدة فقط هى التى يتسق فيها الشكل مع مضمونه ، والعكس فى الأعمال الرديئة . وذلك مثل روايات ديكنز وفلوبير وكافكا ، والعكس فى الحرب والسلام لتولوستوى ، التى رغم قوتها وعظمة بنائها ، لكنها مليئة بالاستطرادات والتزيدات التى لايتطلبها (المعمار) الروائى .

رغم هذه الوحدة العميقة بين الصورة والمضمون (فالصورة تكاد تمثل جوهر الأدب كما سبق) . رغم ذلك فان بعض النقاد ينحون الى محاولة الفصل بينهما فى مقابل من يحاول التوحيد المطلق بينهما مثل بينيديتو كروتشة . والعالم لايقر آيا منهما ، لأن كلا الفريقين قد فهم الشكل على أنه مجرد الصورة أو الصياغة . الا أن الشكل عند العالم أعمق من ذلك ، فهو : "عملية البناء الداخلى



ومنهج تنمية الفكرة والموضوع والمضمون ، هو المعمار الداخلى للعمل الأدبى أو الفنى"(٢٦) . ألا يردنا ذلك الى ماورد فى المحور الأول من أن الشكل هو "العملية الداخلية الفاعلة فى العمل الأدبى". حيث يمثل الشكل عنصرا أعمق من مجرد الملامح الخارجية الى أن يصبح عملية البناء والتكوين والتطوير بما يمنح العمل الأدبى خصوصيته الأعمق من مجرد اتباعه لمظاهر تشكيل خارجية .

ولعلنا نلاحظ هنا تقدما واضحا فى فهم طبيعة العلاقة بين الشكل والمضمون ، فهى ليست مجرد تآزر وتكامل ، ولكنها أعمق بحيث يمكن أن يصبح الشكل هو المحدد للماهية والوظيفة معا ، انه المحدد لمظهر وجوهر الشىء والعمل الأدبى . كما يبرز بوضوح وجلاء فى هذه المرحلة المصطلحان المترادفان : "المعمار" و"البناء" باعتبارهما جوهر الشكل ، وليس مجرد المظهر الخارجى له . وان بقى التفريق بين الأعمال الجيدة والرديئة على أساس قدرة الأولى على تحقيق التماهى بين الشكل والمضمون وعجز الثانية عن ذلك .

٣- جدل الشكل والمضمون :

ويبدو أن العالم لم يكن مطمئنا بالقدر الكافى لما توصل إليه فى الكتب السابقة حول قضية الشكل والمضمون ، فاذابه يثير ذات القضية من جديد فى مقدمة كتابه "ثلاثية الرفض والهزيمة "(١٩٨٥) ، بحيث تأخذ هذه القضية ما يربو على الثلاثين عاما من عمر محمود أمين العالم منذ أول مرة أثيرت فيها عام ١٩٥٤،وحتى هذا الكتاب ١٩٨٥ .

وهذه المرحلة الجديدة وان لم تكن منفصلة عن المرحلتين السابقتين ، من حيث الابقاء على ثنائية الشكل والمضمون والتمييز بينهما ، الا أن الجديد هنا يكمن فى اعادة تحديد طبيعة العلاقة بينهما ، فهى ليست التآزر والتكامل ، ولا التداخل والتماهى ، وانما هى "علاقة جدلية" ، تقوم باعتبارها قانونا عاما يحكم كل ابداع أدبى (٢٧) . وقد يكون من الغريب أن يذكر هنا لأول مرة مصطلح "العلاقة الجدلية" من قبل مفكر لا يتوقف عن التأكيد على منطلقاته الماركسية - المادية الجدلية . ولكن ما يبرر ذلك ويسوغه هو ما ذكرته من أن مراحل الفكر النقدى عنده تتطابق مع مراحل تطوره السياسى - الفلسفى العام .

فى هذه المرحلة يعيد العالم التأكيد على ما غدا من الثوابت عنده ، من أن خصوصية الأدب تكمن فى صياغته أو هيكليته أو بنيته ، الا أنه ينطلق الى أبعد من ذلك ، الى التأكيد على أن الأدب انما هو بنيية دالة ، ولهذا فهو ليس معطى فى ذاته رغم خصوصيته .. "بل هو معطى دال ، وبالتالى غير معزول عن معطيات أخرى (...) والنص الأدبى كذلك رغم خصوصية صياغته وبنيته ، هو بنية داخل أبنية أكبر ، ولحظة داخل سياق زمنى وتاريخى ، وهو معلول لملابسات نشأته النفسية والاجتماعية والتاريخية والثقافية ، وهو معطى دال فعال ومؤثر فى هذه الملابسات نفسها "(٢٨) .

حيث نلاحظ هذا الربط بين الأدب والظواهر ، أو لنقل ، العوامل ، الثقافية والاجتماعية المكتنفة له، لا من حيث التماثل ، كما رأينا فى المرحلة السابقة (الشجرة والسحابة والعجلة ..) بل من حيث علاقة الوحدة والصراع الرابطة بينهم، العلاقة الجدلية القائمة على الترابط والوحدة وتبادل مواقع الفاعلية والمفعولية بين هذه العناصر جميعا . فالأدب ناتج عن واقع اجتماعى ونفسى وثقافى ، وفى نفس الآن ، هو عنصر فاعلية وتأثير فى كل اشكال هذا الواقع . وهذا الفهم لم يكن غائبا ، بالطبع ، فى المرحلتين السابقتين ، بيد أنه لم يكن فى بؤرة التركيز .

كما نلاحظ استخدام مفردات ومصطلحات جديدة على قاموس (العالم) ، مثل مصطلح "بنية" و"هيكل" و"بنية دالة" ..الخ . وهى ، كما هو واضح ، ناتجة عن عن التأثر والتفاعل مع الموجة البنيوية التى ظهرت فى النقد العربى ، بدءا من أوائل الثمانينيات ، مع اصدار مجلة فصول الفصلية القاهرية . غير اننى هنا لابد أن أؤكد على أن علاقة العالم بالبنيوية واطلاعه عليها سابق على هذا التاريخ بحوالى سبعة عشر عاما ، فلقد كان هو أول من تحدث عن البنيوية وأسماها بالهيكلية ، قبل أى كاتب عربى آخر عام ١٩٦٣ . الا أنه الآن يبدو أعمق فهما وأكثر وعيا وهضما لهذا الاتجاه ولمشكلاته النظرية والتطبيقية وعناصره الايجابية ، فى ذات الوقت . حيث نلاحظ ما يشبه التبنى لأحد فروع البنيوية الأقرب الى قناعاته النظرية ، ألا وهو "البنيوية التوليدية" ، والمسماة أيضا "بالتكوينية" ، التى نشأت فى فرنسا على أيدى رينيه جيرار ولوسيان جولدمان فى بداية سبعينيات القرن الماضى ، متأثرة بجهود جورج لوكاتش أحد أهم منظرى علم الجمال الماركسى فى القرن العشرين .

ان هذا التحديد لطبيعة النص الأدبى ولعلاقته بمعطيات الواقع الأخرى ، ليستتبع تحديد طبيعة العلاقات داخل العمل الأدبى ذاته ، بين شكله ومضمونه ، أو بعبارة أكثر عصرية ، بين بنيته ودلالته . بحيث نفهم أن البنية انما هى مرادف الشكل أو الصياغة ، وأن المضمون انما هو مرادف الدلالة . هل هذا هو المقصود فعلا ؟ أم أن هناك معنى آخر يتجاوز ذلك ؟ ان الأمر بالفعل لم يعد يقف عند الصياغة ةالمضمون أو ماشاكل ، بل حدث نوع من من الاندماج الجلى الذى لم تعد معه التفرقة ممكنة ، بل حل مصطلح جديد واحد ألا وهو "البنية الدالة" ، التى تعنى التشكيل الفنى للنص الأدبى المحدد ، بما يمنح "رؤية للعالم" على نحو محدد .

وهنا أيضا يجرى التأكيد على مصطلحات قديمة - متجددة لم تكن مستخدمة فى قاموس محمود العالم فى السابق ، مثل "الخاص" و"العام" ، من حيث تمثيلها لطرفى العلاقة الجدلية المتمثلين فى : التجربة الفردية الذاتية الخاصة (سواء أنتجت أدبا أو مجرد تجربة حياتية عادية) ، والمتغير الاجتماعى - التاريخى العام ، الذى يفرض معطياته على الجميع . هنا يجرى استخدام هذين المصطلحين فى مجال الأدب . فاذا كانت العلاقة الجدلية بين الشكل والمضمون تمثل القانون "العام" ، فان لهذه العلاقة خصوصيتها .. "بالنسبة لكل عمل أدبى على حدة "(٢٩). ولا تتحقق هذه العلاقة "العامة" الاعبر ما هو "خاص" ، بما يعطى أشكال تحقق هذه العلاقة آفاقا لاحدود لها ةلا نهاية . ان هذا التجلى الخاص نفسه هو الذى يعطى ، بدوره ، القانون العام صفته الزمنية والتاريخية المحددة ويجعله نسبيا وانسانيا وليسمجردا أو مطلقا .. يقول العالم : " واذا كانت الدراسة الأدبية (...) تسعى حقا لتحديد القوانين العامة للابداع الأدبى تحديدا علميا دقيقا ، فشرط علميتها هو تاريخيتها كذلك ، أى خصوصيتها المشروطة تاريخيا "(٣٠) .

هكذا يجرى الاتساق والانسجام بين العناصر المعرفية المحددة لطبيعة الظاهرة الأدبية من حيث شكلها ومضمونها ، ومن حيث العلاقة بين الأدب وغيره من المعطيات الاجتماعية - التاريخية والثقافية ، ومن حيث النظرية العامة وخصوصية التطبيق . فينتظمها جميعا قانون الجدل .

ومن ثم ، تتحررالعلاقة بين الشكل والمضمون لتصبح مندرجة ومتماهية فى علاقة مع كل أشكال الوجود ، علاقة ذات طابع تاريخى زمنى ، تتحرك فى صيرورة دائمة ، وفى أخذ وعطاء لا يتوقفان .

ومن ثم ، أيضا يتحرر الآدب من سجنه فى خانة الشكل وينجو من فخ أن يكون مجرد لعبة لغوية جوفاء ، لكى يصبح مصدر امتاع واغناء لوعى الانسان بذاته وعالمه . وكذلك يتحرر من أن يكون مجرد بيانات أو وثائق لا أثر للجمال فيها ، وصولا الى آن يكون بناء فنيا جماليا دالا .

هكذا تتواصل الرحلة المتطورة للكدح الذهنى المخلص والدؤب والصادق العزم ، المليئ بحب المعرفة وعشق الحقيقة ودوام التعلم ، عند الآستاذ الجليل محمود أمين العالم . لكى تصبح سيرته هو الخاصة تمثيلا للتمسك بالنظرية العامة ، ثم التحول النسبى داخلها ، حسب المعطيات المعرفية والتاريخية لزمن كل مرحلة .

الهوامش :

١- حسين مروة ، مقدمة كتاب فى الثقافة المصرية ، ط١ ، دار الفكر الجديد ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص٣ .

٢ - محمود أمين العالم وعبدالعظيم أنيس ، مقدمة كتاب فى الثقافة المصرية ، ط٣ ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ١٧ .

٣ - نفسه ، ص ١٧ .

٤ - المصدر السابق ، ص٤٤ .

٥ - محمود أمين العالم ، تأملات فى عالم نجيب محفوظ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص١٢.

٦ - محمود أمين العالم ، ثلاثية الرفض والهزيمة ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٥ ص ٤٤ .

٧ - نص المقال منشور فى جريدة أخبار الأدب القاهرية ، بتاريخ ١٨ - ١ - ٢٠٠٩ .

٨ - أنظر: فريدريك هيجل ، محاضرات فى فلسفة التاريخ ، الجزء التانى (العالم الشرقى) ، ترجمة امام عبدالفتاح امام ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص٨ .

٩ - تيرى ايجلتون ، الماركسية والنقد الأدبى ، مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، يونيو ١٩٨٥ ، ص٢٧ .

١٠ - فى الثقافة المصرية ، سابق ، ص٤٠ .

١١ - نفسه ، ص٤١ .

١٢ - جورج لوكاتش ، تاريخ تطور الدراما الحديثة ، بالمجرية ،

بودابست ، ۱۹۱۱ ، ص VI.

١٣ - فى الثقافة المصرية ، سابق ، ص٤١ .

١٤ - نفسه ، ص٤١.

١٥ - نفسه ، ص٤٢ .

١٦ - راجع : البنيوية التكوينية والنقد الأدبى ، مجموعة مؤلفين ، مراجعة محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ١٩٨٤ .

١٧ - فى الثقافة المصرية ، سابق ، ص٤٠ .

١٨ - نفسه ، ص٤٤ .

١٩ - نفسه ، ص٤٤ .

٢٠ - نفسه ، ص٤١ .

٢١ - تأملات فى عالم نجيب محفوظ ، سابق ، ص١٢ .

٢٢ - نفسه ، ص ١٢ .

٢٣ - نفسه ، ص١٣ .

٢٤ - نفسه ، ص١٣ .

٢٥- نفسه ، ص١٥ .

٢٦ - نفسه ، ص ١٦ .

٢٧ - نفسه ، ص١٩ .

٢٨ - ثلاثية الرفض والهزيمة ، سابق .

٢٩ - نفسه ، ص٢٢ .

٣٠ - نفسه ، ص٢٣ .

٣١ - نفسه ، ص٢٣ .



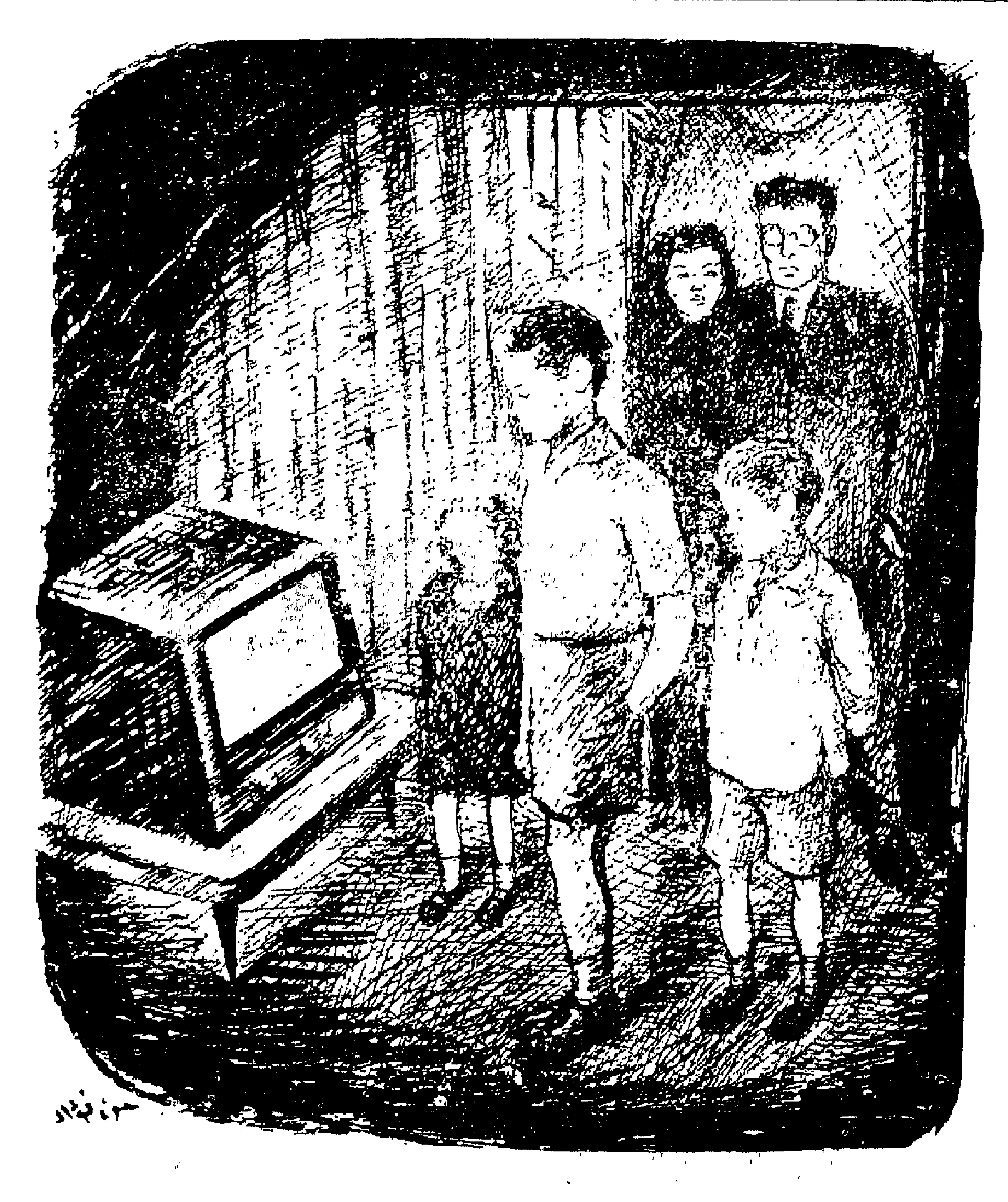
التوأم

تحية وداع إلى العالم وأنيس



شعر:

عبد الرحمن الابنودى



لا باذعى بالقول ده إنى ثورى

ولا باغيّر فى السفر مشروعى

أنا الشيوعى يقول عليا: «حكومى»

وانا الحكومة تقول عليا: «شيوعى»

وانا بس واحد من بتوع الأدان.

أدب ونقد

التــــوأم

واحد.. ورا واحد.. ورا واحد
كِتر العَدَد.. يابا
وأنا احترفت كإنّى.. ندّابة

xxxx

عَمال بنرثى منّنا.. فينا
واشك لما نموت
حنلاقى صوت ،حقّانى، يرثينا
وصدّقونى..
ماهيش صداقة
ولا قلم.. وكتابة!!

xxxx

عَبَرتْ سنين الحلم.. ماعبرتوش
السوق بِيفضَى.. وانتو مابِعتوش ولا
اشتريتوش
وكإنكم.. ماجيتوش
الموت.. طِلِع أصلاً.. مايعرفكوش.
وقفتوا قدّام بيبان الجنة مادخلتوش
الصوت هوه الصوت
الشك كان فى الموت
والموت . طلع أصلاً مايعرفكوش.
الموت ما يعرف إلا أحبابُه
إللى إذا غابوا.. خلاص
غابوا

وانتو الحقيقة لسّه ما غبتوش.
هل كان رحيل بالغصب والأشواق؟
اقولكم
بالنسبة ليكو الموت مافيهش فروق
د. أنيس:

زغَب الجناح الاصفر برغم السنّ
مازال بجسد هناك.. فى شقته اللى
فوق
طفل الحقيقة الطاهِر المَدْهُوش
بيغنى وَخدانى لكين
واقف فى قلب الجوق.
كل الحاجات كانت
كل الرجال.. كانوا
(محمود)

مازال.. بيجزّ فى اسنانه..
على معنى هربان منه فى لسانه
وإيديه..
كإنه كان ناقصها عروق!!

xxxx

ومهما كَان ما كان
ومهما كان ما اتى..
ومهما لاح الفرق فى الأزمان
يمنعنا نقرا صفحة المساجين مع

السجان..
كما بنفعل غالب الأحيان؟
إحنا اللى مابننساش.
وفى سلاسل العبيد
مصر العزيزة قدمتكم
تخلقوا الفجر الجديد.
يا أعز رمز ويا..
أجمل نجوم المحابيس.
فى الهلاهيل متكلفتين
مش منحنيين
يومين هنا ويومين هنا
وتوطوا علشان الدخول
مش انحنا..
عالم خبيث
دوره يدور حوالينا دورانه الخبيث
وهب الشجاعة للجبان.
يعنى اتطاردتوا وجعتوا واتسجنتوا
وكل ده.. علشان
يركب على رقابنا فلان وفلان
وفلان يجيب علان
ولكل واحد.. حتة م السلطان
آهين يا أحبابى
وفجركم ما فضلش من أصداؤه
إلا أدان
والفقرا بيطاطوا لحد الأرض
ساعات صلا
وساعات هوان

وانتو الكتب
اللى بتحلم.. تتقرا
شرف المبادئ فى العرا
وذكريات السلسلة والإسورة
حلم المداين والقرى
بحر الزنى والسمسرة
لما اتفلت
جاب اللى ورا قدام
واللى قدام راح ورا
سكن الدرا
أعز رجالات قدمتهم أرض
وترجعوا بالذاكرة
للى تراجع.. واللى خان
والنجمة ع الكتف المهان
وصرخة الجان الجبان
وهوه متحنجل وعايق ع الحصان
ما أشجع السجان
ما أشجع السجان...!!
ولأول امبارح وبالمخصوص
كنتوا ومازلتوا بتلضموا الفصوص
وتشكلوا منها النصوص
ولسه يمكن مؤمنين
بالحق.. فى زمن اللصوص.
يا أبهات..
مين راح يقولكم للولاد وللبنات؟
مين خلف خطاويكم يغوص؟
مين راح يفتتكم إلى ذرات؟
إيه لينا فى الزمن اللى جاى
وما عادش ينفع القديم؟

أدب ونقد xxxx

صوتكم رقيق
ما كانش ليه زاعق قوى بحق وحقيق
دى أمّه ما يصحّيها لهمومها التقال
إلا الزعيق..
والاّ همستوا لإنكم كُتّاب؟
الوعى يطوى الصوت يهذب الصخَب
هيّه كده حرَف الأدب
صوتكم رقيق
تشفّوا زى القلب ما يكون خالى
يمكن قصدتوا تجسدوا .
صورة وفكرة «الرفيق».
وحتى بعد الكلمة ما صارت ويّا
والنطق بيها صار غبّا .
أحسنتما
لكنما..
مش حنسامحكم ع الرحيل
ياللى انطلقتوا للبرّاح
لما رأيتوا الكون علينا.. راح يضيق
يضيق
يضيق
مع إنكم يا مخلصى المتصوّفين
واخدين على الخلوة
واخدين على العزلة
واخدين على العتمة
وزمّتة المساجين!!

xxxx

بل تشبه العشاق خيوط النور
الجاية من يمّ السمَاء
طيُور بتعلا كإنّها تراتيل صلاة
طيُور تداعب أرضها.. بالنقر
إذا كانت الصباحات. شتا. دافية
الدفء حلو فى الشتا
وأحلا من نسمة تشقّ الصيف
ده بعض مما أملكه من الغباء
وأنا.. عندى كمية غباء.. وافية
طيُور تكلم أرضها بالنقر
تبحث فى رزق الله
صُدفة بدون تدبير
طيُور قليلها كتير
إذا كانت الصباحات. شتا. دافية
وعلى قناة صافية
تعِبّ الماء.
ماعادش بيت الشعر
شطر وشطر
وانتو عاوزينه دواء.. للداء
لكنه بحساب مُلتزم.. ويِقدْر
ماهوش على نفس الميزان.. إيّاه!!

xxxx

كنا فى قلب الخمسينات
كام فات من الأعوام وم الأيام
آدى اللى جنيناه
كلّه طرْف غمام
لا يتمسك باليد

ولا هو ينفع حد
لكن راهِنًا وكان رهان صايب
رُوحنا له بالإلهام
كسبنا أرض الشعر
وأرض مصر
كَسَبوها طبعاً مننا الحكّام
ولا قالولنا بكام
ولا حتى سأَلونا..
إن كان عجبنا السعر.!
أبدا ما كانشى ذِهْننا غايب
أبداً ما كانشى جَهدنا غايب
أكلنا بعض فى وقت ماهمّ
بقوا أهل وحَبَايب
وشُركا ونَسَايب
عُصبة وإيد
راح القديم يعمل جديد
واحنا..
ندُور فيها.. ندُور فيها
نُجرّ سواقيها
تِحزّ أكتافنا الحبال
اللى يقولك: «يا عميل»
واللى يقول: «يا خال»
فى العالم المهتزّ
فى العالم المبتزّ
لكن قدرع الأرض وعلينا
نِرْويها.. ترْوينا
الميّه ليهم واحنا لينا الحزّ
بنمشى بيه نعتزّ
بكل ما عِشناه بنهابِرْ

يا شعبنا الصابر
الأنبيا.. مابيكبروش فى السنّ
وفى عواصف الألم
وفى مزادات الأنين العام
مين يستمع للّى يئن؟

xxxx

قاصدين رحيلكم يتحسدْ
رحيل بيسْبَق
أو قصد يسبق رحيل «غزة»
وهيّه بتنجلدْ!!
تسند جسد على الجدار
وتسلّم الروح فى سكات
وتطير قلوبنا زىّ عصافير الشتا
وطير الشتات
ونختفى كُلاًّ.. فى عين الجنّ
عاش والاّ مات
زى النّبات
الأنبيا.. ما بيكبروش فى السن.
كما يولِد الليل النهار
إذا البدَن قرّر.. يكنّ.
إذا البدَن
حاول يموتهم.. فمات
اظنّ!!

xxxx

العَنبر المرحوم



تتصارع الفكرة مع الفكرة
كان صُرّة الصحرا..
صحيح عزيز النُّوم
لكنّه متصبّر بفكرةْ
انتظار بكرة
اليوم بعد اليوم
بكره اللى أبعد م المدى والنقيبكره..
ربيع الغلابة واكتفا المظلوم
آه يا امتداد الرمل
عصارة الروح وانتباهات الزمن
هاربين من الوطن البعيد
والاّ هرب بيكو الوطن؟
كنا فَرادى..
السجن.. لمّ الشمل
نفتكروا أحبابنا القدام
نكتب رسايلنا فى وش الرمل
ونفكروا فى تحـــــرير بلادنا من
اللصوص ومن الهوام
بعث الحياة والارتفاع بالأهل.
واحنا هنا فى الشمس
بنفلّى الهُدوم.. م القَمْل.
يامّا طويلة يا خنقة السنوات
أعظم هامات
أعظم ما جاد العصر من رجّالات
ومن ألبَاب
فى الصحرا بتجاور وبتحاور سطور
النمل
أو طيره وحدانية منسيّة
وراجْعة.. بعد غياب.

(لا خمر للسجناء ولا قمر)
(ولا بانجو للثورى ولا حشيش)
وانتو بتحاورتوا ع البلاط
وخلَقتوا متعة من مافيش.
كام كنتوا سادة وانتو ع البطاطين
كام كنتوا أحرار الوطن
يا حضرة المساجين!
على الأقلّ..
كان فى إيديكم معنى تانى للأمل
وللعمل من أجل تحقيقه.
من أجل تصديقه
ولاجل ما يوسع لنا ضيقهُ!!

xxxx

دلوقت بعد تواتر الأنظمة
وبُعْدَها عنّنا
بُعْد السما.
نمكن نقول ان الرؤى كان فيها شىء
مش عايز اقول من الضباب
أو م العَمى.
الأنظمة الحلوة بتتواتر
وحبها للأرض دى.. فَاتِر
وبعد ما غُصنا فى وحْل الحاضر
يمكن نحس بالألم وبالندم
على مضايْقتنا لعبدالناصر
ماكانش «ناصر»
حاجة واقعة من السما
لأ.. كان حقيقةْ أرض مصرية

نِدا الضرورة ولَهفة العشّاق
بالرغم م الألم اللى فى المعاناة
والألف قولة آه.
والانتخابات الـ (نَعَمْ)
والمخبرين والشرطة والتضييق
فينا اللى مافهمشى..
مزالق الطريق.
وأمّا ناصر ده فكان..
ندا الغلابة اللى موطيّه
كان التاريخ حيوى
صبح التاريخ ميّت بلا ديّة
قلنالهم: «الثورة عمل يدوى»
وإن «ناصر» غلطة تاريخية
لن يسمحوا ليها تعود تانى..
هاجمونى إخوانى!!

xxxx

ضاقت علينا.. ناس بتتحمّل
وناس بتتسحّب.. وناس بتتأمّل
وناس بتتجنّن..
وناس بتنكر أصلها
وناس تعود للأصل
وناس بتندب حظ مصر
وادى الزمن.. كإنه قطر ومَرّ
وناس بنفس العقل بتكمّلْ
أما انتو فلجأتوا
لبحر.. ماله بر
معزول.. بيسخر من
حروف الجرّ
حب الحقيقة.. ملجأ المضطرّ
لا طلع لكم لغاليد ولا كروش
ولا اتّكيتوا على فروش
السوق بيفضى
وانتو.. ما بعتوش ولا اشتريتوش؟
وكإنكم.. ماجيتوش
سِبْتوا الكتب فى البيت
ورَقدْتوا فى التوابيت
وكإنكم م السجن.. ماطلعتوش
الموت..
طلِع أصلاً.. مايعرَفْكوش!!

xxxx

كإن كل مابتهزّكم روح القدر
تعلموا العين القديمة
تشوف معاكم من جديد
من بعد ما وهبتوا الحياة..
.قلب ونظر.
فما عادش من يومها الشجر
شجر.. ولا عاد الحجر
حجر.. ولا البشر.. ولا الأثَر
ولا الأثر
وتشفّ وِسْط الرَّدَغَة
أسرار القدر!!

xxxx

الكلمتين اللّى كتبتوهم على اتفاق
. أيام ما كان ممكن لِناس..
تبقى رفاق..
يتصدّقوا .. ويصدّقوا .
أخدونا للّى إحنا فيه دلوقت.
لسّه على حَجَر الطريق نقط المطر.
الحبْر بيجفّف هدومه فى العرا
مايهمّهوش الدنيا يابسة.. ممطرة
الحبْر يفضل للأزل
إذا صِدْقُه رَسَم الثورة
أو نَقْش الغَزَل
إذا صاحبُه آمِنْ فى زنازين السنين
أو فى خطر.

xxxx

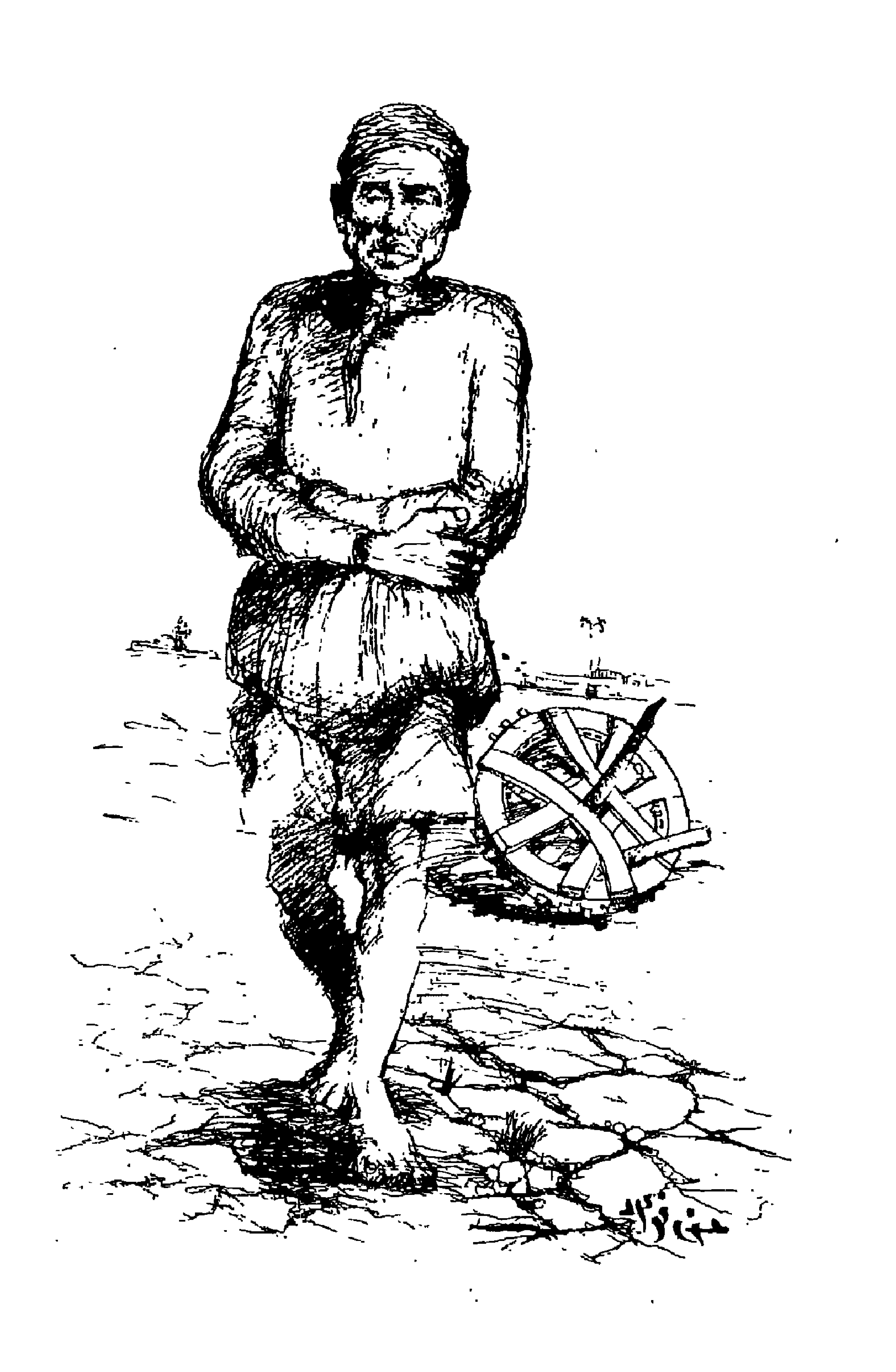
من قبل ما غادرنا بيوتنا.. للطريق
فى الهوّ وضباب لاختيار
فى عزّ ما احتجنا لبلّة ريق
علّمتوا عزْم الضيّ يِفْلِت روحُه
من كفّ النهار!!

xxxx

وهكذا هِمْنا..
فى الأرض.. واتيتمنا.. وحلمنا
طِرْنا أمورنا طير
وكنّا فاكرين الأمور سهلة
وما احتملناش الصعود
للغير
وفى الحقيقة ماحبيناش الخير
ولا كُنّا طير سابح فى مُلك اللآه
ولا الوقود اللى الحياه.. عاوزاه
لأه.. حسدنا بعض
اتعركت طموحاتنا ونفشنا
نفْش الديوك.. وكإنها فعلاً طموحاتنا
وماهيش طموحات شعب أو أمة!!
الكِلْمَيات..
فِضْلوا ف ضمير الأهل
لا نبّتوا نبات..
ولا كبّروا البنات
ولا عرفْنا نكون فى يوم اخوات
مع إننا إخوات
حاجة.. تخلّى اللى ما خافش يخاف
إحنا ضللنا السكة للأهداف
ولا حدّ ودّ وقال: «يا طير»
تعالى فى الحضن «بات»
عجزْنا.. بسّ الجسم غضّ.
وهكذا هِمْنا..
فى الأرض واتيتمنا.. وحْلمنا
وادى السما فضلت سما
والأرض أرض!!

xxxx

لسّه المعافرة والمظاهرة سادة عَرْض
الشارع
وقايش الظابط



نشيط ونازل.. طالع.
ولسه فى قسم البوليس
الشابة متمزّع حوايجها
صارفينْ لها سبرسجى.. بالع.
والشاب بيحبّوا يشوفوه قالع..
لكن الهتاف اللى بيعلا.. يظل.
يظل متعلق:
الآه بتفضل آه..
واللأ.. لأ.
ماقدرش أقول انه اتسمع
لكل شعبنا اتسمع
ولا زرَع.. ولا قلع
ولا خوّف الباغى امتنع
ولا لمّ ميراث شعبنا الضايع
بكره اللى أبعد م المدى والنّفْى
لا رد للناس حلمها ولاردّ
الحلم فى الإيد اللى مابتتمدّ
اليأس ماعرفش الطريق ليكم
وعرفتوا دايماً نبقى أهاليكم
وصَفْصَفِتْ قدّامكو مازعلتوش
هذا أملْ «جيلاتيني» ومخادع
يوم ينتشى
ويوم يتراجع
واحنا على الحلم القديم عايشين
ما بين سعار الدولة واهل الدين
الكل ماشى يفرّق الجنة على المساكين
وعلى سلاليم النقابة حاجة بتعلَم
اللافتات مرفوعة تتكلم
ومازالت الأصوات
بتزحم السلَم
بتعلا.. وتدمدم
تعلا فى كل الدنيا ما تضلَم
الصوت يوذّى يجيب
تهتف لمصر اللى بتِشرِق لحظتين
وتغيب.
فى كُمّ ذاك الساحر البارع
اللى يخلّى الحلم يبقى خيال
بالأمر نَقَلُوا الماضى لمضارع
وكنتوا خُبرا فى لعبة الأفعال.
لكن قبضنا الهوا
والحلم غاوى هروب
كله بهمومنا ارتوى..
والشمس ماشبعتش موت..
وغروب!!

xxxx

خمس سنين فى السجن
وأى سجن؟ صُرة الصحرا
ومملكة الرمال
وفوقها م السجان أبوالكرامات
حبة شهور يا خال
إداكوا فرصة تلاعبوا زهو الخيال.
تِطفْــوا نيــــران من حَنْ للأهل م الواحات.
اليوم يلف يعود
بيلف زى السور
وأوّله أول.. وأوّله آخر

خمس سنين حرموا العقول منك
بيتوبوك عنك.. تتقدموا للفجر
يتأخر
السلسلة تمن بسيط للنور
غلاسة الظباط
وبلاهة العساكر
هدوم بلا خياط
مسرح بلا تذاكر
وان تِقْضُوا حاجة.. طابور
وكلكم.. بالدور
ولا حدّ مِ الرُّفقا سمع لك أنّ
يا بالك الطويل
وانت على مكن الغسيل
فى وقت أبله من جرانين الصباح
ولا أنين ولا صياح
كتمتْ معاناتك وصوت أنّك
ماحناش جبابرة.. يا خال
لكنك
اخترت واللى اختار بصدق
مشواره بيكون باحتمالات الألم..
مش ارتجال!!

xxxx

بيخبّط (العقّاد) على بابك
يشتم: «صغار السن»
وفى استحالة يفند اسبابك
يصرخ بكل ما فيه من
عظمة
ومن ضوضاء
(عبدالعظيم والعالم)

أشم فى هدومهم روايح «روس»
يرسم دواير حوْلكم «حمراء»
طول عمركم أبدا ما نفيتوها
ولا حاولتوا القفز
متحمّلين الاتهام.. والوخْز
وكإنكو إنتو للى اخترعتوها!!

xxxx

يخبّط (العقاد) على الأبواب
يلعن أبوخاش (الكتاب)
لكن يعطّل مين؟
ويهب (طه حسين)
للشمس يتصدّى
قلْتوا: «القديم صدئ»
حرضتمونا نتجه للناس
صوتنا يضلل فوق جبين المُنهكين
ويلعن الحراس
برَقْتوا ورعدتوا وْخلقتوا الزلزلة
ورغم ده
«صدّينا» إحنا
بس غيرنا اللى انْجَلى
فى زمن قانونه (جلا.. جلا)
الحرّة راحت تنحرِف
ودكهه.. ماتابت

وانت ف طريقك للختام ثابت
صامت.. ومش ممكن ح تتحول
متشال على كتوف الرفاق
الحزن موعد لاتّفاق
والأمن عينه فِ موتكم ارتابت
كما شئت إنت
لا كما شائت
م الإعتقال صاحبك من الأول
عمرك ما فكرت كان قصئر وكان طوّل
قبل الزمن ما يميل
ويستغول.
الاعتقال.. كبِر معاك فى السن
وعلّمك تحول الأحزان إلى أفكار
فلا بِتدْمع ولا بتئن.
وهم غاويين يشنقوا المشنوق
ويطرُقوا المطروق
وهم غاويين بكف السلطة
حجب الضوء.
الاعتقال
ممكن أسمى الاعتقال (دكتور أنيس)
الاعتقال بيت غالى.. خدْت عليه
يملاك سواعى بالزّهَق وساعات بشوق
الاعتقال جه معاك من أيام (فاروق).
السجن يكبر بس مايقلّش
وعينيك لمن يقراها ماتْدرلش
خدّاعة بنت المعرفة
خدّاعة تاخدك للطفولة.. حَدْف.
وانت برضا كامل تروح
للحتف

جسد.. برىء.
زى اللى حافظين الطريق
قاهر.. خفيف الروح.. نظيف الكف
إسمك مايتهدّش
يا عم يا «عبدالعظيم يا أنيس»
اسمك مايتهدش
عالى صحيح لكن مايتهدّش
ويغلفوه ويغمروه بضباب
نقشة قلوبنا اللى ماتتقلّدْش
واللى عليها صورة الأحباب.
يا طفل من دون كل أطفال الحياة..
طول عمره ما اتخضّش.. ولا اتبلّدْش
يا طفل عاش وعاش
يلاعب الاندهاش
حتى إذا خطفوك من الشارع
أو الجامعة.. عشان يرموك
خلف الحيطان اللى مابتردّش
بتِنْدِهش..
عمرك ماسابك لاندهاش.
ساهِم كإنك منتظر عصفور ماجاش
صديق ماجاش..
وانت عارف ان اللى جاىّ
ولا حدّ.
وانت.. كإنك انت
وانت كإنك لانْتَ
ولا تعرفك حتى.
عينيك حكيمة متبتّة بتتمدّ
على العصاية ف قبضة السجّان!!

xxxx

انت اللى حوّلت الكلام إلى سلوك
وسابقت يا عبدالعظيم
جياد جميع من جنّدوك
إنت ماحدش جنّدك
إنت اللى شفت وارتفعت
وارتقيت
همّ اللّى كانوا بيتّبعوك
طالع بصدقك النّدِى من بيت أبوك
ويالهُ من بيت
يعيّنوك.. ويرفدوك
يستقبلوك.. ويشندلوك
وتعمل إيه البهدلة والرفد م التدريس
مثلاً تغيّر فيك ملامح الأنيس؟
هل قدروا مثلاً يهزموك؟

xxxx

تغسل دماك يا أيها الرجل الجميل؟
تغسل دماك؟
وهوّه ده
مش نفس دمّك النبيل
اللى هناك واحنا فى أول الرحيل
غسل الغشاوة عنّنا والارتباك
جيل بعد جيل؟
برضك يا خال «عبدالعظيم»
لازمُه غسيل؟
طهرك ده يغسل اقلُه

نهر النيل!!

xxxx

ويا عمنا (العالم)..
وانت يا غاوى الدقّة والتأصيل
نشرت صدرك النحيل
تستقبل السّهم اللى قاصد الحياه
وبالهذا الصدر..
كم احتمل كمّ السهام الجايّه
من كل اتجاه
وانت بتبحث عن أمل
فى زحمة التفاصيل.
إنت اتخذت من الأدب
لثورتك نفس السبيل
لاجل النهار يبنى عشوشه
فوق شواشى الليل.
شجر..
يميل.. على ثمر
مهما تخفّف الخطى تترك اثر
فى زمن ضنين
فرجُه عسير
بعّت القليّل بالكتير
الشعر ماهوش دروشة
الشعر مش ترتيل
الشعر يدبل لو يخاوى الصبر
الشعر روح
قبلن يكون أوزان وقافية ونبْر
من الحياة اللى بتشفِى بالحياه
.. للقبْر

ومن قدر يدفع تمن موتك
ترحل.. تعود..
إيه اللى حيفوتك؟
يا فهد يا برّى..
يا عصب وتر مسكون
بحماسك الذرّى
وكل م السنّ يمضى..
يشتعل صوتك..
حقّك تكلّ فهل فى يوم كلّيت؟
ولو يكون للحق سيف تالِم
بترفعه فى وجه كل اللى معارضينك
فى البرد تشكى الحرّ..
يا عمنا «العالم»
حالم لكن صاحى
صاحى.. لكن حالم
والحلم مش ملكك
الحلم عاوز صبْر.
حلمك لكل من صبَر
حلمك لكل من عبَر
من بوابات الحلم.. أمْر وجبْر.
فازاى يوماتى بتنغرس فى الهم
وتْشُرّ دمع ودمّ
وتعود لنا سالم؟!
بتبتدى من حيث بدأت
بتحترق فى كل وقْت
وكل ما بتحترق نلاقيك تعيش.
مش كل باب بينطرق
مين فينا ماشافكْش
وانت بتحترق؟

بنفترق.. ونلتقى.. ونفترق
صوتك ملَعْلَع حولنا لدلوقت
يا شعلة الإحساس
يا أشرس الحراس
اتكدس التغيير على التغيير
وانت بتبحث فى التقاسيم
عن نغم ثابت
نغم لكل الناس.
ولا همّك إن الزمن
ممكن يكون عادل يكون ظالم
هذا الضجيج الصمت
بيردد الإسم اللى عارفينه
بيردد الإسم اللى مش ح يغيب
(محمود أمين العالم)

xxxx

مهما يتْقَل بالمسافر نأى
الرؤية توضح فى اتضاح الرأى
بلا نعى كان السعى ما ندبتوش
ولا نُحتوا ع الأطلال ولا..
سبتّوا النضال
ولا قعدتوا تعدّدوا على الوطن
أو تلعنوا الزمن الضلال.
بالعكس.. كنتوا تملّى مبتسمين
أطفال فى سنّ التمانين
الصوت جِهَرْ مع إنه رِقّة همْس
إيه عدّى فى تاريخها ولاعرفتوش
من الرياضة للأدب.. للحبْس؟



xxxx

... لِكُو فينا

لِكُو فينا قد ماليكو فى ولادكو

إحنا بقينا..

لإنكم.. كنتوا.

إحنا اتسمعنا

اللى ابتدا.. انتو.

يا سلام يا ناس..

يا سلام يا ناس ع الاتّفاق

صُدْفِتهم اللى جمّعتهُم فى اللقا

من تانى جونا يعلّمونا

إنها

تنفع..

فى ساعة الفراق.

تبان صحيح متفرقة..

واتارينّها..

هيّه العناق.

دخلوا رفاق

رحلوا رفاق!!

xxxx

واحد.. ورا واحد.. ورا واحد

كِتِر العدد يابا..

وانا احترفت

كإنى ندّابة!!

أغنية دون كيشوت الأخيرة!

أحمد عبدالمعطى حجازى

ما الذى أستطيع اليوم أن أقوله عن محمود أمين العالم؟ عن سيرتنا معه، وسيرته مع نفسه؟ ماذا صنعنا به، وماذا بنفسه صنع؟

أدب ونقد

إن الكلمات تملى على نفسها بدلا من أن أمليها أنا، الكلمات تكشف عن قلبى بدلا من أن يكشف القلب عنها، اللغة حزينة، والقلب حزين، والعقل حزين، لأن محمود أمين العام ترك أحبابه وغادر الدنيا دون أن يحقق ما كان يتمناه لنا، وما كان يستطيع أن يحققه لنفسه.

محمود أمين العالم، هذه الطاقة الجبارة من الحب والموهبة، والصدق، والطفولة، والمودة، والإيثار، والتضحية. هذا الشاعر، الناقد، الكاتب، المناضل، الفيلسوف، المتشرد، المفصول من عمله فى الجامعة مع غيره من المدرسين والأساتذة لأنهم وقفوا الى جانب الديمقراطية وطالبوا ضباط الجيش بالعودة الى الثكنات، والمعتقل بعد ذلك خمس سنوات متواصلة، والمنفى بعد ذلك عشر سنوات، ماذا بنفسه صنعا؟

والكلمات تأخذنى من محمود أمين العالم وتذهب بى الى جيله كله، هذا الجيل الذهبى الذى فتح عينيه على الحياة فى العشرينيات الأولى من القرن العشرين مع الثورة الوطنية التى طوت بها مصر عمرا وبدأت عمرا جديدا، طوت تاريخا مظلما كانت فيه ولاية منتهكة مستعبدة، وبدأت تاريخا جديدا عادت فيه للحياة فتية حرة مستقلة متفتحة متوهجة عاشقة مفكرة راقصة مغنية.

إننى أستعيد صورة مصر هذه كما أراها فى كتابات طه حسين، والعقاد وعلى عبدالرازق وهيكل، وفى أشعار شوقى وحافظ وعلى طه وناجى، وفى ألحان سيد درويش وأغنيات عبدالوهاب وأم كلثوم، وفى مسرحيات يوسف وهبى ونجيب الريحانى...

أستعيد صورة مصر هذه المولودة من جديد فى الثورة فيتمثل لى جيل محمود أمين العالم، إحسان عبدالقدوس وعبدالعظيم أنيس وعبدالرحمن الشرقاوى ويوسف ادريس وبدرالديب وكمال عبدالحليم ويوسف الشارونى ومصطفى سويف وحسن فؤاد وأحمد بهاء الدين وكامل زهيرى.

طفولة هؤلاء فى عشرينيات القرن الماضى هى طفولة مصر وصباهم وشبابهم فى الثلاثينيات والأربعينيات شبابها وصباها.كتاب وشعراء، وفنانون يعيدون الحياة للأدوات التى فقدت وظيفتها فى عصور الانحطاط وفقدت قيمتها ومعناها، الكلمات، والألوان والإيقاعات هبت من رقدتها الطويلة لتقول وتصور وتعبر وتؤلف وتترجم.

هذه الروح الجديدة التى لم تسعها الأشكال الموروثة، ولم تستجب لمغامراتها فى الكون وفى العصر وفى الحياة وجدت نفسها فى أشكال حية ورثت بعضها واستعارت بعضها من الثقافات الأخرى وطوعتها لنفسها وحلت فيها.

يوسف إدريس ينقل القصة من عالم الحكاية الى عالم التجربة الحية، ومن رومانتيكية تيمور الى واقعية تشيكوف، والشرقاوى يقدم تجاربه فى تجديد القصيدة العربية شكلا وموضوعا، معجما وموسيقى، وحسن فؤاد يستلهم أعماله من اعمال الواقعيين الفرنسيين، وتذكرنا رسومه المستوحاة من حياة الفلاحين المصريين برسوم الفنان الفرنسى دوميه وصوره عن الاحياء الفقيرة فى المدن الفرنسية وركاب الدرجة الثالثة، ونعمان عاشور ينزل بالمسرح من عالم الأبطال والآلهة الى عالم الناس اللى تحت، وبدر الديب يجرب قصيدة النثر، وجمال عبدالرحيم يؤلف فى سونيتاته ومتتالياته بين الألحان الشرقية والأشكال السيمفونية.

ثم إن هذه الروح الجديدة لم تقتصر على إحياء اللغة واقتباس الأشكال، وانما كشفت للثقافة عن وظيفتها الحيوية، وحولت المثقف من خادم تابع للسلطة السياسية المستبدة الى ضمير يقظ وسلطة أخلاقية، لأن تجديد الأدوات والأشكال تنقل الثقافة من تقليد الماضى وحفظه وتحنيطه وتقديسه الى مخاطبة الواقع ومساءلته واختبار انسانيته والعمل على تغييره، هكذا ظهر المثقف المسئول الملتزم، وهكذا انحاز محمود أمين العالم ومعظم أبناء جيله لليسار.

محمود أمين العالم بدأ شاعرا. وقصائده القليلة المنشورة فى الأربعينيات لا تدل فقط على موهبة حقيقية، بل تدل أيضا على شخصية قوية كان يتمتع بها محمود أمين العالم فى سن مبكرة، كما نرى فى قصيدته التى سماها آغنية دون كيشوت الاخيرة.

ومن المحزن أنه فى هذه القصيدة التى يعلن فيها عن شاعرية حقيقية يعلن فى الوقت نفسه عن القرار الذى اتخذه بالتوقف عن كتابه الشعر.

يحدثنا عن الشعر كيف كان يمثل له فى شبابه، وكيف قرر ان يهجره فيقول مستخدما ضمير الغائب، معبرا بذلك عما كان يتميز به من حياء وتواضع:

كان يفكر بالشعر، ويحس بالشعر، ويعيش بالشعر، لكنه استيقظ ذات يوم فوجد الشعر يقول له: كى تكون شاعرا بحق، لا تكن شاعرا، كيف؟ كن انسانا عاديا، سر فى طرقات الناس، عش حياتهم، كل مجاعتهم، واشرب أحزانهم وتنفس أشواقهم.

وباسم الشعر ترك الشعر من أجل الشعر كف عن كتابة الشعر ليحياه ويعيشه، وكان آخر أشعاره أغنية دون كيشوت الأخيرة:

هل أغنى؟ هل أشرع السيف؟
أم أقبع وحدى هنا وراء ستارة؟
أتلهى بما تلهى به الناس،

سؤال عن صحة، وسجارة
أرشف العمر فى اتئاد وحرص
ثم أذرو دخانه فى مهارة

• • •

لن أغنى، لن أشرع السيف،
لن أقبع وحدى هنا وراء ستارة
سوف أمضى كما ولدت، سأمضى

بشريا، أجل، بغير ستارة
فى الطريق الذى يسير عليه الناس
أمضى وفى جبينى بشارة.



طهروا الأرض م الحصى والحجارة

طهروا الأرض م الحصى والحجار!

فماذا فعل محمود آمين العالم حين هجر كتابة الشعر ليعيشه ويناضل فى سبيله، ويحول أحلامه الى واقع سعيد ومدينة فاضلة؟ ماذا صنعنا به؟ وماذا بنفسه صنع؟

فارق أحبابه، فما انتفعوا

بالعيش من بعده، ولا انتفعا!

• • •

والسؤال ليس عن بطل سرفانتس، ولكنه عن محمود أمين العالم الذى رأيناه فى قصيدته أغنية دون كيشوت الأخيرة يتخلى عن كل ما يمكن ان يميزه عن غيره من أبناء شعبه أو يشغله عنهم، الشعر الذى يكتفى به الشعراء عن الفعل، والعنف الذى يلجأ اليه المغامرون الأفراد ليغيروا النظم الفاسدة بضربة تصيب أوتخيب، بدلا من أن يخوضوا مع الجماهير البسيطة نضالها الصعب الطويل ويصلوا معها لما تتمناه وتصبو اليه فالعدل الحق لايقف عند حد التسوية بين الناس، وإنما يتجاوز هذا الحد الى ايقاظ أرواحهم، وتفجير طاقاتهم الخلاقة التى تجعلهم مشاركين فاعلين يفكرون لأنفسهم، ويبنون مستقبلهم بأيديهم، وهذا هو الطريق الذى سار فيه محمود أمين العالم.

لم يهجر الشعر كله، ولكنه هجر شعر القول الى شعر الفعل، فأصبح يناضل فى سبيل العدل الذى كان من قبل يحلم به، وفى هذا النضال الذى خاضه بكل ما يملك من طاقات وجد نفسه يتحول من شاعر الى ناقد.

الشعر رؤيا. والنقد تأويل أو تفسير لهذه الرؤيا يساعد على تحقيقها. من هنا يبدأ كل عصر أو كل خلق جديد بالشعر. يبدأ حلما أو خيالا أو نبوءة لا تتحقق إلا بوعى واضح صريح يفسر لنا الرموز والصور، ويكشف عما يصلها بالواقع الحى الذى نعيشه، وإذا كانت الثقافة المصرية فى الاربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى تعبيرا عن وثبة جديدة وعن أفكار ورؤى ثورية، فنحن نستطيع ان نعتبر هذه المرحلة مرحلة شعرية بالمعنى الواسع للشعر، أى بما هو أحلام ونبوءات تعبر عن نفسها فى القصيدة أو فى أى نوع أدبى اخر، ونحن نستطيع بالتالى ان نفهم حاجة هذه المرحلة الشعرية إلى وعى نقدى يبلور شخصيتها، ويعرف بغاياتها ووسائطها، ويكشف عما يصلها بالمراحل السابقة وما يميزها عنها، وسوى ذلك مما يحتاج لمعرفته الكاتب المنتج

ما الذى صنعه دون كيشوت بعد أن أغمد سيفه، ونزل عن صهوة جواده، وكف عن الغناء؟

ليكتب بوعى، والقارئ المتلقى ليقرأ بوعى، لاسيما والكاتب هنا ليس مجرد كاتب، والقارئ ليس مجرد قارئ، وإنما هما مناضلان يسعيان معا لبناء حياة جديدة تحقق للناس ما يطمحون اليه من الحرية والعدل والتقدم والرخاء.

ونحن نعرف أن جيلا جديدا من الشعراء والكتاب المصريين ظهر فى أربعينيات القرن الماضى، وواصل السير فى الطريق الذى بدأه رواد النهضة المصرية، وخطا خطوات أبعد مما وصل اليه هؤلاء.

اللغة التى كانت لاتزال فى أول القرن لغة نقل وتقليد لم تتخلص تماما من تأثير عصور الانحطاط أصبحت أقرب للسليقة، وأكثر تمثيلا لمصر وتعبيرا عن العصر.

والأشكال الأدبية المقتبسة التى كان الرواد يجربونها على استحياء ويشعرون فيها بالاغتراب كالرواية والقصة والمسرحية طوعها الجيل الجديد وأصبح يتصرف فيها تصرف المالك لا المستأجر.

والحوار الذى لم يكن موجودا بين الثقافة العربية والثقافات الاوربية الحديثة أصبح أساسا للتفاهم والانتماء لإنسانية واحدة، واتسع مجال الرؤية والحركة أمام الكتاب والشعراء.

والثقافة التى كانت مجرد حرفة لكسب الرزق أصبحت ضميرا ورسالة، والأدب الذى كان مجرد لعب شكلى واستعراض للمهارة واعادة صياغة للنصوص القديمة المحفوظة أصبح طريقا لمعرفة الحقيقة واكتشاف الواقع الحى والتغلغل فى أعماقه.

هكذا ازدهرت القصيدة المصرية وتطورت وتعددت أشكالها ولهجاتها ومذاهبها بالتجارب التى قدمها الكلاسيكيون وشعراء الديوان، وشعراء أبوللو، والشعراء الجدد فى الشعر المسرحى، والشعر المرسل، وشعر اللجهة الدارجة والشعر المنثور والشعر الحر.

وتمصرت الرواية وخرجت من عالم الماضى والترجمات التجارية الرديئة لتتغلغل فى أحياء القاهرة الشعبية وفى أعماق القرية المصرية، وظهرت فيها أسماء جديدة ومواهب كبيرة، كما ازدهرت فنون المسرح، والسينما، والأغنية والفنون التشكيلية بالجهود الفردية، وجهود الدولة والمؤسسات الاقتصادية الأهلية. وفى تضافر هذه الجهود وتعددها وتنوعها ظهرت العلاقة الوثيقة بين

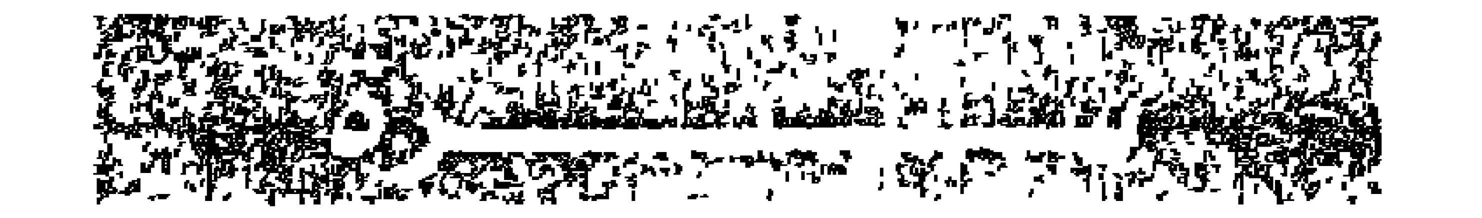


الثقافة والواقع الحى الذى كان يشهد هو الاخر تطورات جذرية
لقد اشتدت الحركة الوطنية وازدادت خبرة وتعددت أجنحتها وتنوعت برامجها وشعاراتها، وأثبتت البرجوازية المصرية وجودها، فهى تقود الرأى العام، وتشارك فى السلطة، وتحل محل المتمصرين المرتبطين بالقصر الملكى. والطبقة العاملة تتسع وتتبلور ملامحها، والأحزاب والمنظمات السياسية والنقابية تنشط وتتصل بالعالم الخارجى، وتقتبس من تجارب الشعوب الأخرى ونضالها، وتشيع فى البلاد روحا جديدة تمثلت قبل كل شىء فى التيارات العقلانية واليسارية التى اجتذبت اليها شباب الاربعينيات ومثقفيها ووجدت حتى فى الأجيال السابقة من يتعاطف معها ويلون كتابته ببعض ألوانها.

وفى هذا المناخ الخصب المحتدم الحافل بالأصوات والألوان ظهر محمود أمين العالم ليواجه الأسئلة التى كان لابد أن يواجهها شباب تلك المرحلة خاصة هؤلاء الذين كانوا يدرسون الفلسفة:- ما هى العلاقة التى تربط الثقافة بالواقع؟ وما الدور الذى تلعبه الحقائق الموضوعية فى العمل الأدبى؟ وما الدور الذى يلعبه الخيال؟ وهل يكون الجمال وحده غاية الشاعر أو الفنان، أم ان الجمال الحق حق، والحق دائما جميل؟ وفى هذا الصراع المحتدم بين المستعمرين وأهل البلاد، وبين الحكام الطغاة والمحكومين المضطهدين، وبين ملاك الأرض والفلاحين الكادحين أين يقف الكاتب والشاعر والفنان والفيلسوف؟ ماذا يقول؟ وبأى لغة يقول؟ وهل يكفى القول أم لابد أن يصدقه العمل؟ولقد وجد محمود أمين العالم نفسه مطالبا بتقديم الجواب الذى ضحى من أجله بالشعر فصار ناقدا، ثم ضحى بكل شىء لأنه أراد أن يفعل ولم يكتف بأن يقول!

أدب ونقد

في العدد القادم
ملف خاص عن الأديب الراحل
يوسف أبو ريّة



طفـــــولتي بقلمى

د.عبد العظيم أنيس

ولدت فى شهر يوليو ١٩٢٣ فى حى الأزهر لعائلة لها ثمانية من الأبناء، أربعة ذكور وأربع إناث، وكنت أصغر الذكور وأصغر الإناث باستثناء واحدة، وكان بيتنا يقع على بعد خطوات قليلة من الجامع الأزهر، وكان هذا بيت جدى لأبى فى حقيقة الأمر الذى كان يعمل فى صناعة البناء ويطلق عليه من قبيل التجاوز لقب «مقاول» فقد كان لديه عدد محدود من المساعدين من بينهم أبى وشقيقاه يساعدونه فى بناء بيوت صغيرة أو مساجد متواضعة وقيل إن جدتى لأبى ساعدت جدى فى بناء البيت الذى كنا نسكن فيه بالأزهر.العائلة كانت عائلة أبى جميعا من الحرفيين نزحت أصلا من إحدى قرى الشرقية واستقرت بجوار مسجد ابن بنت رسول الله تلتمس فى جواره البركة، فمنهم من كان صاحب محل جزارة أو كان نجارا أو احترف صناعة البناء كما فعل جدى.ولقد تعلم أبى وشقيقاه خبرة صناعة البناء عن أبيهم ثم انفصل كل واحد منهم عن أبيه بعد الزواج، وارتبطت أعمال أبى بوزارة الأوقاف خصوصا لتركيزه على بناء المساجد فى المراكز والعواصم المختلفة لمحافظات مصر، بينما تخصص أعمامى فى عمليات ترميم المساجد الأثرية وبالتالى تركزت علاقاتهم بمصلحة الآثار.وكانت عائلة أمى ذات صلة أيضا بصناعة البناء، ومن هنا تم زواج أبى بأمى، فقد كان جدى لأمى مقاولا كبيرا نسبيا بمقاييس عصره وكان بارعا فى صناعته إلى درجة أنه أطلق عليه لقب «المهندس» وهكذا اكتسبت أسرته هذا اللقب من بعده، ولقد كسب

جدى لأمى كثيرا وأضاع معظم ما كسبه فى أهواء الشرب والنساء. على عكس جدى لأبى الذى كان شديد الحرص على ماله، فضلا عن أنه كان شديد الإسراف فى منزله وقد تزوج سيدة تركية الأصل هى جدتى لأمى لا أتذكر شيئا عنها وإن كنت أسمع دائما أنها من فرط سمنتها كانت عاجزة عن المشى فى السنوات الأخيرة من حياتها فكان أولادها ينقلونها على «صينية» عشاء كبيرة إذا أرادت الانتقال من غرفة إلى أخرى أو الذهاب إلى الحمام؛ التعليم والأزهر وعلى عكس عائلة أبى لم يمتهن أحد من أخوالى صناعة أبيهم، فقد كان الوضع التقليدى في أسرة أمى هو التوجه نحو التعليم كطريق مضمون للحراك الاجتماعى، وكان التعليم آنذاك فى الأسرة يعنى الذهاب أولا إلى الأزهر لحفظ القرآن ثم من هناك إلى تجهيزية دار العلوم، ثم إلى دار العلوم للعمل بالتدريس فى مدارس الحكومة هكذا فعل خالى زكى المهندس ومن بعده شقيقه كامل، وهكذا فعل من بعدهما شقيقى الأكبر إبرهيم وكان أخوالى من الهمة فى التحصيل والتفوق فى الدراسة بحيث أرسل خالى زكى إلى بعثة لبريطانيا عام ١٩١٠ حيث قضى بها أربع سنوات وعاد للعمل فى تفتيش اللغة العربية كما أرسل شقيقه الأصغر كامل فى بعثة إلى بريطانيا ٣ وبقى فيها سبع سنوات وعاد عام ١٩٣٠ حيث عمل رئيسا لقسم الفهارس العربية بدار الكتب المصرية وكان لهما شقيق أكبر من الأم فقط عرف فى الأسرة باسم الشيخ على الشهداوى درس أيضا فى الأزهر وارتبط بالحزب الوطنى حتى أنه أرسل فى بعثة على نفقة الحزب إلى فرنسا لمدة ثلاث سنوات كان فيها معاونا لمصطفى كامل ومن بعده عبدالعزيز جاويش. ازدواجية الإسم إنما أشرت إلى هذا الوضع داخل أسرة أمى بشىء من التفصيل لسببين.. أولهما أننى عندما ولدت ٣ أرادت أمى أن تسمينى باسم «كامل» تيمنا بأخيها كامل الذى كان على وشك الذهاب إلى بريطانيا عندما ولدت لكن جدتى لأبى وكانت صاحبة شخصية قوية اعترضت حتى لا يظن أحد أننى قبطى فاقترح والدى أن يكون اسمى فى شهادة الميلاد «عبدالعظيم» منعا لأى لبس بينما ينادوننى فى البيت باسم شقيقها وهكذا نشأت أحمل اسمين: واحدا فى شهادة الميلاد ولا يعرفه أحد فى العائلة وآخر فى المنزل وظل هذا هو الوضع حتى دخلت الجامعة مما أدى إلى مفارقات طريفة كثيرة فى حياتى ولم يختف هذا الازدواج فى اسمى في حياتى إلا عندما تخرجت من الجامعة وتزوجت فأصبح لى اسم واحد هو عبدالعظيم. أما السبب الثانى للاستطراد عن أسرة أمى فهو أن جو التعليم الذى اندمجت فيه أسرة أمى أدى بطبيعة الحال إلى انحيازات سياسية مختلفة فقد كان خالى الشيخ على الشهداوى من أنصار الحزب

الوطنى بينما كان خالى الأصغر كامل شديد الحماس للوفد ولسعد زغلول. وكثيرا ما تصارع الاثنان حول شئون السياسة. وفى هذا الجو انحاز شقيقى الأكبر إبراهيم إلى جانب الوفد وكان وهو طالب فى دار العلوم كثير التردد على بيت الأمة يلقى القصائد الوطنية أمام سعد زغلول ومن بعده مصطفى النحاس ولهذا كان انحيازنا الأول - أنا وأشقائى - إلى الوفد بطبيعة الحال.ولقد بقيت فى حى الأزهر حتى سن الخامسة وذهبت إلى الكتاب بعض الوقت وأنا فى الرابعة من العمر لكنى لا اتذكر من هذا إلا أن الكتاب كان بجوار منزلنا وكانت هناك حنفية للمياه أمام الكتاب يتزاحم حولها الناس لملء صفائحهم وأوانيهم وكانت جدتى لأبى تأتى لزيارتى فى الفصل وتعطينى نكلة «مليمين» أشترى بها من المدرس بعض الكعك غير أن جدى بنى منزلا فى العباسية الغربية قريبا من شارع الملكة نازلى «شارع رمسيس اليوم» وكان البيت يتكون من دورين وبدروم سكنا نحن فى الدور الثانى وسكن عمى الأكبر فى الدور الأول بينما سكن عمى الأصغر فى البدروم لقد تركنا حى الأزهر وكانت أمى تقول آنذاك إننا «طلعنا» العباسية بعد موت سعد زغلول وكنت أدهش من استخدامها فعل «طلع» فى هذا السياق وأتساءل إن كان هذا بمعنى أن العباسية كانت أعلى فى أرضها من أرض حى الأزهر، أم أن «الطلوع» هنا بمعنى الصعود فى السلم الاجتماعى ولقد تعودت أسر البورجوازية الصغيرة المقيمة فى حى الأزهر على مشروع الانتقال إلى حى العباسية بمجرد أن تسمح الظروف المالية ببناء منزل فى هذا الحى الجديد نسبيا كانت معظم أراضى العباسية صحراوية ولذا كثر البناء فيها فى أوائل القرن وفى العشرينات وإليها انتقلت عشرات الأسر وكانت القاعدة العامة هى أن الأسر الثرية تبنى لها فيلات فى العباسية الشرقية أما أسر البورجوزاية الصغيرة فكانت تبنى فى العباسية الغربية أو تستأجر لها مسكنا هناك ويذكرنى هذا التاريخ بما حدث لنجيب محفوظ الذى انتقلت أسرته قبلنا من الأزهر إلى شارع رضوان شكرى بالعباسية الغربية وفى الحقيقة أن شارعنا لا يبعد عن شارع رضوان شكرى كثيرا .ولقد كان انتقالنا إلى المنزل الجديد فى العباسية تحولا كبيرا فى حياتنا فقد وجدنا أنفسنا نمشى ونلعب فى شوارع واسعة ونظيفة وبالقرب من منزلنا كانت هناك حدائق غمرة الجميلة التى كانت تجمع أطفال الحى وتمثل متعة ما بعدها متعة لهم وكانت منطقة شارع أحمد سعيد مليئة بالغيطان المخصصة لزراعة الخضروات وكثيرا ما كانت ترسلنى أمى إلى هناك لشراء السبانخ أو الكرنب كانت هناك أراض فضاء واسعة نلعب فيها الكرة وبعد سنوات صار الاحتفال بالمولد النبوى يجرى فى صحراء العباسية وأصبح

الموكب المحمل بالكسوة الشريفة ينتهى هناك ومع أن صلتنا لم تنته بحى الأزهر لأن جدتى وجدى لأبى ظلا هناك، فإن هذه الصلة بدأت تفتر تدريجيا خصوصا بعدما ماتت جدتى فجأة بالسكتة القلبية عام ١٩٩ وانتقل جدى للإقامة معنا فى العباسية بعد ذلك بسنوات قليلة.ألم فراق جدتى وأميولقد كان حادث وفاة جدتى صدمة لى وأول مواجهة لمعنى الموت وأنا فى هذه السن الصغيرة، فقد كنا نحبها حبا جما، وبدأ لى اختفاؤها المفاجىء أمرا شديد الصعوبة وكنا قد تعودنا أن ننتظرها بالساعات عند موقف ترام غمرة حيث كان الترام رقم ٥ والترام رقم ينتهيان، عندما نعرف أنها ستأتى لزيارتنا، حتى إذا ما نزلت من الترام صحبناها أنا وإخواتى وأولاد عمى فى زفة كبيرة من موقف الترام إلى البيت، ولا عجب فى ذلك فقد كانت تحبنا وتنفحنا بالنقود وأنواع الحلوى المختلفة، وحتى اليوم مازلت أتذكر يوم هذا الحدث الجلل - حدث وفاتها- فقد دق بعض أقاربنا باب منزلنا قبل الفجر بقليل وهرول أبى وأمى بسرعة وهما يهمسان. فلما طلع الصباح أخذنا أخى حسن - نحن الأخوة الثلاثة الصغار- معه وذهبنا مشيا إلى الدراسة عن طريق شارع مصنع الطرابيش وعندما اقتربنا من منزل جدى سمعنا صراخا وعويلا وبكى أخى حسن وقال لنا الخبر الحزين ولقد كانت الصدمة الثانية والأكبر فى حياتى إزاء الموت عندما ماتت أمى عام ١٩٤٤٠ نتيجة الإصابة بالحمى، وكنت قد انهيت امتحان السنة التوجيهية وكان عمرى آنذاك سبعة عشر عاما. وكنت شديد التعلق بأمى وأدت بى هذه الصدمة إلى تحولى إلى إنسان نباتى لا أذوق اللحم لسنوات ولم استطع أن أخرج من إسار هذه الأزمة إلى قرب تخرجى من الجامعة.عندما انتقلنا إلى حى العباسية كان من الطبيعى أن يدخلنى أهلى مدرسة تناسب سنى، ولقد دخلت مدرسة البرامونى الأولية وقضيت بها عامين قبل التقدم لامتحان القبول بالمدرسة الإبتدائية، وكانت هذه المرحلة - مرحلة المدرسة الأولية - تعيسة بالنسبة لى، ولشرح ذلك ينبغى أن أوضح أننى قد تعرضت وأنا فى الثالثة لحادثة - ونحن ما زلنا فى حى الأزهر كادت تودى بحياتى، فقد وقعت من على سلم منزلنا ونزفت من جرح فى الأسنان واللثة، ولابد أن هذا الجرح قد أهمل أو عولج بالأساليب الشعبية مما أدى إلى حدوث غرغرينة فى اللثة العليا، وذهب بى أهلى إلى المستشفى الإيطالى بالعباسية وأجريت لى جراحة عاجلة أزيل فيها جزء من اللثة وعظمة الأنف وقضيت أياما بين الحياة والموت فلما عوفيت اتضح لأهلى انه ترتب على هذه العملية بعض التشويه فى الفم وفى المدرسة الأولية كان الأطفال وبعض المدرسين يعيروننى بهذا التشويه، وكان مدرس اللغة العربية ينادينى للإجابة فيقول ،قوم يا

أشرم، إشارة إلى هذا العيب وأعتقد أن الخجل والانطواء فى شخصيتى آنذاك إنما يعود إلى تلك الظروف، ولقد أدى هذا إلى كراهيتى للمدرسة وللذهاب إليها وإلى شدة تعلقى بأمى وكان ذهابى إلى المدرسة كل يوم مشكلة فقد كنت أبكى وأصرخ إلى أن يحملنى الخادم على كتفه إلى باب المدرسة وهناك يتلقفن الشيخ ناجى المسئول عن طابور الصباح فيأمر الفراش أن يخلع لى حذائى ثم يقوم هو بضربى على قدمى بضع خيرزانات لأكون عبرة للأطفال الآخرين، وفى بعض الأحيان كنت أهرب من المدرسة فى فترة بعد الظهر.معاناة الدراسة الأولى ذكرت هذه الوقائع لأوضح اننى لم أتعلم الكثير من المدرسة الأولية، وعندما تقدمت عام ١٩٣١ لامتحان القبول بمدرسة الظاهر الإبتدائية لم أنجح فى الامتحان بل رسبت بجدارة، وعندئذ أسرع أخى إبراهيم بتقديم أوراقى إلى مدرسة الحسينية الإبتدائية ونجحت بالكاد فى امتحان القبول وهناك قضيت مرحلة التعليم الإبتدائى فى الحسينية الإبتدائية ،وهى قرية من ميدان الجيش وقد شغلت المبنى بعد الثورة شركة مصر للمستحضرات الطبية، من عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٣٥، كان التعليم الابتدائى بالمصروفات ،عشرة جنيهات تدفع على ثلاثة أقساط، إلا للمتفوقين ومع أن الأزمة الاقتصادية العالمية قد أصابت أبى بضرر شديد وصل حد الإفلاس إلا أننا لم نكن نرغب أن نتقدم بشهادة فقر ورغم هذه المعاناة فقد دفعوا لى المصروفات فى السنة الأولى وجزء من السنة الثانية، ثم أعفتى بعد ذلك من المصروفات بمناسبة شفاء الملك فؤاد وصدور قرار بإعفاء الخمسة الأوائل من كل سنة من سنوات الدراسة.ومع بدايتى المتواضعة كان اهتمام أشقائى بى فى المذاكرة قد أوصلنى إلى أن أكون من الخمسة الأوائل فى نهاية السنة الثانية وظل هذا حالى فى السنتين الثالثة والرابعة وتميزت بتفوق خاص فى اللغة العربية والحساب وربما يعود تفوقى فى اللغة العربية إلى طبيعة اهتمامات الأسرة التى تخرج العديد من أبنائها من دار العلوم، أما شغفى بالحساب فلا شك أن لمدرسى آنذاك - الأستاذ المرصفى- فضلا لا ينسى فيه.وبشكل ما استطاعت الأسرة أن تجتاز تلك المرحلة بصعوبة ودون خسائر فادحة ذلك أن أخى إبراهيم قد عين فى مدرسة خاصة بمرتب عشرة جنيهات ومع أنه كان الثانى فى دفعة دار العلوم عام ١٩٣٠ إلا أنه لم يعين بمدارس الوزارة بسبب قرار صدقى باشا وقف التعيينات، وكانت شقيقتى الكبرى عائشة تعمل مدرسة بالمدارس الإبتدائية وساعدنا ذلك على تدبير أقساط المصروفات لى ولثلاثة من الأشقاء، لكننا اجتزنا هذه المرحلة بتضحيات وآلام نفسية غير قليلة. ولعل تلك المرحلة هى التى لفتت نظرى - ولا تزال - لمسألة الفقر فى الأوساط الشعبية والظلم

الفادح الواقع على الملايين نتيجة الحرمان من التعليم، والخسارة التى تصيب الأمة كلها نتيجة هذه الأمية.

الابن القدوة

وينبغى أن أذكر هنا أن سلوك الابن الأكبر فى العائلة فى طريق التعليم يكون له فى العادة أثر غير قليل على الابن الأصغر، فهو القدوة والمثل خصوصا إذا كان فارق السن كبيرا وفى حالتنا كان لتفوق شقيقى الأكبر إبراهيم أكبر الأثر عندى طوال مراحل التعليم، فبعد سنوات قليلة من التدريس أرسل فى بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٣٤ وطوال المدة التى قضاها بالخارج كان يرسل لى كل فترة خطابات على المدرسة يشجعنى فيها على التفوق الدراسى ويطلب منى أن أبعث له بأخبارى ومشاكلى. أتذكر مثلا أننى عندما كنت فى سنة الشهادة الإبتدائية بالمدرسة الحسينية أن دخل ضابط المدرسة يوما إلى فصلى ونادى اسمى، فلما وقفت ناولنى خطابا من انجلترا. وبالطبع كانت ساعدتى وفخرى أمام زملائى فوق الوصف، وقد حدث نفس الشىء لأكثر من مرة عندما دخلت مدرسة فؤاد الأول الثانوية وقضيت بها السنة الأولى والسنة الثانية.فى المرحلة الثانوية ١٩٣٥، - ١٩٤٤٠، قضيت بمدرسة فؤاد السنتين الأولى والثانية فلما فتحت مدرسة فاروق الأول أبوابها عام ١٩٣٧ كنت من ضمن المنقولين إليها وفيها قضيت السنوات الثلاث الأخيرة من المرحلة الثانوية ومنها حصلت على الشهادة التوجيهية عام ١٩٤٤٠، ولكن يحسن أن أشير إلى حدث مهم فى حياتى وقع لى بمدرسة فؤاد الأول فى السنة الأولى من التحاقى بها. ففى العام الدراسى ١٩٣٦٣٥ قامت فى مصر مظاهرات عارمة تهتف بسقوط وزير خارجية بريطانيا ،صمويل هور، بمناسبة تصريح له، ولقد خرجنا من المدرسة فى مظاهرة كبيرة إلى شارع العباسية حيث هاجمنا البوليس وضربنا بقسوة، فعدنا إلى المدرسة وألقينا على قوات البوليس الطوب والأخشاب. وكان شقيقى محمد فى طليعة فرقة قذف الطوب، وكنت أساعده، وفى المساء جاءت قوات من البوليس إلى المنزل وسألت عنى لأنهم وجدوا بعض كتبى على سطح المدرسة، كنت فى الثانية عشرة وأخذت إلى قسم الوايلى حيث قضيت الليل مع ثلاثين آخرين فى زنزانة القسم، وفى الصباح أخذونا إلى مبنى محافظة القاهرة حيث عرضنا على النيابة التى تولت التحقيق معنا،ثم أفرجت عنى لصغر سنى، كان هذا الحادث أول مواجهة لى - وأنا مازلت طفلا - لمسألة السلطة، ولقد بكيت عندما جاءت أمى لزيارتى فى قسم البوليس لكننى عندما عدت إلى المدرسة فى اليوم

التالى حاولت أن أتظاهر بالشجاعة أمام زملائى. وبالطبع ترك هذا الحادث أثرا عميقا فى حياتى بعد ذلك، مازلت أذكره بتفاصيله كما أنى مازلت أذكر جنازة ويصا واصف التى مرت عام ١٩٣١ فى شارع رمسيس أمام منزلنا وهتافات شباب الوفد فى تلك الجنازة المظاهرة كقولهم «إشكى الظلم لسعد يا ويصا».

تكوينى الثقافى

وفى هذه المرحلة - مرحلة المدرسة الثانوية - واظبت طوال الصيف على الذهاب إلى دار الكتب فى ميدان باب الخلق للقراءة واستعارة الكتب، فقد كانت ظروفنا المالية لا تسمح بشراء كتب للقراءة العامة وإن كنت قد استفدت من مكتبة أخى إبراهيم بالمنزل التى تركها عند ذهابه إلى بريطانيا ومنها قرأت مقامات الحريرى وديوان المتنبى وديوان الحماسة لأبى تمام وكتاب قدامة بن جعفر فى نقد النثر وغيرها، ولست أدعى أننى فهمت كل ما قرأت فى مكتبة أخرى، لكن ذلك كان مقدمة لمواظبتى على الذهاب كل يوم خلال الصيف إلى دار الكتب حيث أظل بها من العاشرة صباحا حتى الواحدة ظهرا وساعدنى على هذا أن خالى الأصغر كان آنذاك رئيسا لقسم الفهارس العربية بينما كان الشاعر أحمد رامى رئيسا لقسم الفهارس الأجنبية فى القاعدة المقابلة، وكان موظفو قسم الفهارس العربية يرحبون بى ويساعدوننى، وفى تلك المرحلة قرأت معظم إنتاج طه حسين والعقاد وأحمد أمين والمازنى وتوفيق الحكيم كما قرأت ديوان شوقى ومسرحياته وحافظ إبراهيم والبارودى، وكان العقاد يلفت نظرى ويستحوذ على إعجابى بصفة خاصة خصوصا كتابه «سعد زغلول سيرة وتحية» ومطالعاته فى الكتب والحياة وتأملاته فى الفلسفة وكتابه عن ابن الرومى، لكن كتب العقاد التى صدرت فى مرحلة متأخرة من حياته لم أجد فيها نفسه العميق القديم.وفى تلك المرحلة أيضا حرصت على قراءة بعض الكتب العربية التى تتناول قضايا الفلسفة بصورة مبسطة وشغلنى على وجه الخصوص سقراط وأفلاطون فى الفلسفة اليونانية وأفكار المعتزلة فى الفلسفة الإسلامية كما عرضها أحمد أمين، وكان لكل هذه القراءات أثرها فى نشاطاتى بمدرسة فاروق الأول الثانوية، فمع مواظبتى على شراء مجلة «الثقافة» كنت مشتركا فى جمعية التمثيل بالمدرسة وأذكر أنى قمت بدور الكاهن «أنوبيس» فى مسرحية كليوباترا لشوقى عندما قدمناها فى آخر العام، وكنت ضمن هيئة تحرير مجلة المدرسة «الفجر» واشتركت مع آخرين فى تكوين «الجمعية الرياضية» تحت إشراف المدرس الأول للرياضيات بالمدرسة، وقد

شجعنى هذا النشاط على مواصلته فى مرحلة الجامعة حيث انتخبت رئيسا للجمعية الطلابية للعلوم الرياضية والطبيعية بكلية العلوم جامعة القاهرة لعام ١٩٤٣، ١٩٤٤ .ولقد واجهت مشكلة عسيرة عام ١٩٣٩ إثر حصولى على شهادة الثقافة العامة، إذ كان على أن اختار إحدى الشعب الثلاث للسنة التوجيهية آداب، علوم، رياضيات، فقد كنت محبا للغة العربية والأدب والفلسفة، كما كنت محبا أيضا للرياضيات ومتفوقا فيها، ومع أنه بدا لى أن الجمع بين الرياضيات والفلسفة هو أمر طبيعى، لأن أفلاطون كتب على باب أكاديميته ،لا يدخلها إلا المشتغلون بالهندسة، إلا أن نظام التعليم فى جامعاتنا لم يكن يسمح بذلك، فإما أن ألتحق بكلية الآداب لدراسة الفلسفة أو بكلية العلوم لدراسة الرياضيات، ولقد اكتشفت فيما بعد أن الجمع بين الدراستين يتحقق بسهولة فى الجامعات الأوروبية والأمريكية حيث تقوم الجامعة على الأقسام كالوحدات الأساسية وليس الكليات وحيث جدول الدراسة من المرونة بحيث يسمح بالجمع بين تخصصات تبدو متباعدة تماما فى جامعاتنا، وفى ظنى أن إحدى نقاط الضعف الأساسية فى جامعاتنا هو الوضع الجامد الذى لا يسمح بالجمع بين الفلسفة والرياضيات معا أو بين الرياضيات والاقتصاد، وهكذا .وظللت فى هذه الحيرة طوال صيف ١٩٣٩ ثم تصادف حضور أخى إبراهيم من لندن لزيارتنا فقام بإقناعى بدخول كلية العلوم لدراسة الرياضيات وقال آنذاك إن فى مقدورى دراسة الفلسفة أو الآداب وحدى بالقراءة والمثابرة فى أشهر الصيف بينما أنا أدرس الرياضيات بكلية العلوم، لكن العكس صعب إن لم يكن مستحيلا، وأذكر أنه قال لى كآخر حجة فى جعبته ،إن الفلسفة والأدب لا يطعمان أحدا! .واقتنعت ودخلت شعبة الرياضيات فى السنة التوجيهية، ثم قسم الرياضيات فى كلية العلوم ولم أندم على ذلك أبدا، وفى مرحلة المراهقة والنزعات الافلاطونية بدت العلوم الرياضية . البحتة لا التطبيقية . ذات جمال خاص، وما كان يذهلنى حقا هو معنى هذه الحقائق الرياضية فى الهندسة والجبر التى بدت وكأنها مستقلة عن أى خبرة، إنه عالم المثل إذن كما كان يقول أفلاطون، واحتضنت بقوة كتاب الرياضى الانجليزى الكبير هاردى ،الرياضة البحتة، كما احتضنت أفكاره المثالية كذلك.فى مايو سنة ١٩٤٤ حصلت على الدرجة الخاصة فى الرياضيات بكلية العلوم جامعة الملك فؤاد الأول القاهرة وعينت فى أوائل سبتمبر من نفس العام معيداً بكلية العلوم جامعة الملك فاروق بالإسكندرية ومع أنه كانت هناك فرصة لتعيينى بجامعة القاهرة إذا انتظرت فإننى آثرت عدم الانتظار لأسباب عديدة فى مقدمتها أننى كنت حريصا على أن أعيش حياة

مستقلة عن الأسرة خصوصا بعد وفاة والدتى وبداية تفكك الأسرة بزواج الكثير من أبنائها.لكنى ذهبت إلى الإسكندرية وأنا أحمل فى داخلى ذكريات علاقات عديدة بالقاهرة لعبت دورا مهما فى تحديد مسار حياتى واهتمامى بالإسكندرية، لقد ساعدت ظروف تربيتى وما صادفته الأسرة من مصاعب بسبب الحرص على التعليم واهتمامى منذ وقت مبكر فى شبابى بالعمل العام وعلى توفر إحساس مبكر بالالتزام قبل الآخرين خصوصا إذا كانوا من الفئات المضطهدة والمظلومة والمطحونة اجتماعيا فمثلا عندما جاءت وزارة الوفد إثر أزمة فبراير سنة ١٩٤٤ بين الملك والانجليز. وسط غارات جوية ألمانية وإيطالية على القاهرة والإسكندرية__ وكانت قوات روميل قد وصلت إلى العلمين، تطوعت للالتحاق بمدرسة الوقاية من الغارات الجوية بالزيتون التى كانت قد أنشئت لتدريب المشرفين على أعمال الوقاية من الغارات، وكان سنى آنذاك لا يزيد على ستة عشر عاما، وعندما خصصت الجمعية التعاونية للبترول ٥٪ من أرباحها السنوية للخدمة الاجتماعية وقامت بإنشاء مبرتين للأطفال الفقراء مبرة الأميرة فادية بالدمرداش ومبرة الأميرة فريال بالقلعة سارعت وأنا طالب بالجامعة بالتطوع للعمل المجانى فى المبرة الأولى التى كانت قريبة من منزلنا، وقضيت فترات الصيف لثلاثة أعوام متتالية أعمل متطوعا بتلك المبرة فى فصول محو الأمية وفى الطواف على منازل الأطفال الفقراء بالمحمدى لبحث الحالة الاجتماعية لأسرة كل طفل واقتراح معونة مالية لها، وكان يشرف على هذا العمل من قبل الجمعية التعاونية للبترول اثنان من كبار الممولين فيها، كامل عبدالرحيم وكيل الخارجية المساعد آنذاك وسفير مصر فى واشنطن بعد ذلك والمستشار عبدالمنعم رياض الذى كان من قضاة محكمة النقض.الشباب والخدمة الاجتماعيةولقد استطعت اقناع بعض زملائى ومنهم د. محمد عجلان. بالاشتراك فى هذا العمل التطوعى الخيرى خلال فترة الصيف، ونجحت فى ذلك مما أسعدالمسئولين عن هذه المبرة، خصوصا كامل عبدالرحيم الذى كان يرى فى هذا العمل نقطة تحول فى توجهات الشباب نحو الخدمة الاجتماعية، وساعد على توثق صلتى به أنه قد بدأ يكتشف أن موظفى وزارة الشئون المنتدبين للعمل بالمبرة كانوا يختلسون بعض الأموال المخصصة للإنفاق عليها، فما كان منه إلا أن كلفنى بمسئولية الإنفاق على المبرة يوميا وتقديم كشف حساب له كل شهر، وعندما تخرجت فى كلية العلوم وعينت معيدا بالإسكندرية أقام كامل عبدالرحيم حفلة شاى بمنزله بمصر الجديدة لتحيتى وتوديعى وأهدانى باسم المبرة أربعة كتب فى الرياضيات قيل لى إنها سوف تفيدنى فى حياتى العلمية

الجديدة.كانت تلك إذن صورة سريعة لاهتماماتى بالعمل العام. الخدمة الاجتماعية. عندما ذهبت إلى الإسكندرية ولقد أشرت إلى ذكريات العلاقات الكثيرة مع زملاء لى، والتى حملتها معى عند ذهابى إلى الإسكندرية، وهنا يجب أن أشير إلى علاقتى بالدكتور عبدالمعبود الجبيلى. وزير البحث العلمى فى السبعينات ومدير مؤسسة الطاقة الذرية قبل ذلك. كان عبدالمعبود معيدا بقسم الكيمياء تخرج قبلى بعامين وكان محل انتباه الانظار بالكلية لتفوقه العلمى وذكائه واهتمامه بالشئون العامة ولقد حاولت اجتذابه للعمل معنا فى الخدمة الاجتماعية بمبرة الأميرة فادية فلم أجد منه الحماس الذى توقعته، وأدى بنا هذا إلى حوار طويل حاول فيه اقناعى بأن الخدمة الاجتماعية لن تؤدى إلى تغيير حقيقى فى الأحوال المتردية للمجتمع المصرى وأنها لا تزيد على أن تكون مسكنا من المسكنات مثل الاسبرين، وأن الحل الحقيقى الجذرى هو الثورة على النظام الملكى القائم، وأن مثل هذا العمل فى حاجة إلى إعداد طويل.وشيئا فشيئا بدأت أشك فى أنه مرتبط بشكل ما بتنظيمات ماركسية غير معلنة، ثم تيقنت من صحة هذه الشكوك عندما بدأ يتحدث معى ببعض الصراحة ويعيرنى بعض الكتب الماركسية الانجليزية مثل «ما هى الاشتراكية» لإميل بيرنز وكتاب «الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» للينين، وملخص لكتاب «رأس المال» لماركس، وكتب أخرى ترضى اهتماماتى بالفلسفة مثل كتاب «الأيديولوجيا الألمانية»، «ضد دهرونج» لماركس وكتاب «المادية والنقد التجريبى» للينين ولقد التهمت كل هذه الكتاب وتصورت أننى فهمت وإن كنت قد أدركت فى فترات لاحقة أن الفهم الحقيقى لا يتحقق إلا بمعرفة السياقين الاجتماعى والثقافى اللذين ألفت فيهما هذه الكتب، غير أن أهم كتاب أثار اهتمامى آنذاك هو فى الحقيقية كتاب إنجلز «جدل الطبيعة» وهو محاولة من المؤلف. على ضوء اكتشافات العلوم الطبيعية فى القرن التاسع عشر. لاستخلاص قوانين الجدل من تلك الاكتشافات، وهذا الكتاب بالذات كان محل انبهارى الشديد فى تلك الفترة من شبابى لأنه بدا لى أنه يقدم تعميما مثيرا لبعض النتائج العلمية. فى الرياضيات والفيزياء والبيولوجيا. لم أسمع به من قبل، ولقد لفت نظرى على وجه الخصوص كيف أن رجلا مثل إنجلز يكون على هذا المستوى من المعرفة مع أنه غير متخصص فى العلوم. وبالطبع فعندما أنظر الآن إلى هذا الكتاب أشعر أن هذا الإعجاب المبكر كان مصدر جهلى بأشياء كثيرة عن العلم، وقد يكون كتابا جيدا بمعنى تاريخى، لكن التطورات العلمية للقرن العشرين قد تجاوزت نتائجه دون شك، وبعض نتائجه فيما يتعلق بالرياضيات التى تبدو لى اليوم ساذجة كان مصدرها



معرفة إنجلز السطحية بهذا العلم.الثورة هى الحلتلك كانت البداية إذن.. مناقشات مستمرة مع عبدالمعبود الجبيلى وغيره من الأصدقاء وقراءة متصلة فى كتب ماركسية كان يعيرنى إياها، وكل هذا انتهى بى إلى الاقتناع بوجهة نظره بأنه لا يوجد حل لمشاكل مصر الاجتماعية غير الثورة، وأن خير ما يفعله شاب مثلى هو المشاركة فى الإعداد لها. وهكذا ارتبطت بمنظمة «اسكرا» التى كان الجبيلى أحد قادتها وعندما تمت الوحدة بين «اسكرا» وبين «الحركة المصرية للتحرير الوطنى» عام ١٩٤٧ وتكونت منظمة الحركة الديمقراطية للتحرير الوطنى

العالم: القيمة والرمز

د. جابر عصفور

وودعنا جسده الذى ودعنا بوداعه رمزا من أكثر رموزنا الفكرية، فى ثقافتنا، أصالة وعطاء وأداء لما يزيد على نصف قرن من الزمان، قلت لنفسى إذا كنا ودعنا الجسد، فالجسد فان فى النهاية، لكن المؤكد أن إنجاز العالم الفكرى والإبداعى سوف يجعله باقيا فى حياتنا الثقافية، لن يطويه النسيان رغم أن آفة حارتنا النسيان كما يكرر نجيب محفوظ فى أولاد حارتنا وكما أن إبداع نجيب محفوظ لا يزال باقيا بيننا، وسيبقى إلى ما شاء الله لنا أن نبقى، فإن إنجاز العالم سوف يظل باقيا بالقدر نفسه، فهو رمز وقيمة لا يمكن أن تبهت شعلتهما فى حنايا الذاكرة الثقافية.

عندما عدت من المقبرة التى تركنا فيها جسد محمود أمين العالم الذى حملنا معنى حضوره الساطع فى جوانحنا

وأعتقد أن ذلك يرجع إلى عدة أسباب أولها الثبات على المبدأ وعدم التنازل أو التخلى عنه لقد بدأ العالم حياته الفكرية الحقيقية بالانتماء إلى الفلسفة الماركسية التى أعانته على تكوين رؤية ثورية لواقعه الوطنى بخاصة وللعالم بعامة وقد عمل على تحقيق رؤيته على أرض الوطن الذى انتمى إليه، وحلم بمستقبل أفضل له، يضمن تحقيق العدل للمعذبين فى الأرض، والحرية للحالمين بها، والتقدم للعاملين من أجله وكان السجن لمرات عديدة الثمن الذى كان عليه أن

يدفعه ورفاقه الشرفاء لأكثر من مرة ثمنا لذلك، وكانت أطول فترات الاعتقال فى الفترة الناصرية من سنة_1959_ إلى سنة_1964_ التى كانت بداية ما أسماه العهد الناصرى التحول إلى الاشتراكية والمصالحة مع اليسار المصرى، فخرج العالم من السجن ليعمل بالحياة الثقافية،

وما أسرع ما شغل مناصب قيادية متعددة رئاسة مؤسسة الأخبار، ومؤسسة المسرح، وهيئة الكتاب إلخ وانتهى العهد الناصرى بكارثة العام السابع والستين التى أودت بحياة عبد الناصر فى سبتمبر_1970_ وجاء العهد الساداتى ليتحول عن التحول الاشتراكى، ويستبدل النظام الرأسمالى المفتوح بالنظام الاشتراكى الذى ظل أقرب إلى الشعارات منه إلى الواقع الفعى ودخل العالم السجن مع من أسماهم نظام السادات بمراكز القوة، وخرج من السجن بعد أشهر ليجد نفسه بلا عمل، فترك بلده، مؤثرا المنفى الاختيارى على احتمالات تكرار الاعتقال، مع عشرات غيره من المثقفين المصريين الذين دفعهم النظام الساداتى إلى المنفى الاختيارى الذى كان أهون من السجن وطالت سنوات المنفى على محمود العالم،

لكنها كان لابد أن تنتهى كما انتهت سنوات السجن، ويعود العالم إلى مصر، ممتلئا بالحماسة نفسها للعمل من أجل تحقيق رؤيته عن المستقبل، غير متخل عنها أو هجرها إلى غيرها، كما فعل كثيرون غيره، إيثارا للسلامة أو طلبا للمنفعة وظل العالم على مبدئه، نموذجا نادرا للإخلاص لما آمن به، وظل على نشاطه الفكرى المتوقد إلى اللحظة الأخيرة من حياته، يحيا حياة الزهاد، لا يعبأ إلا بالفكر والكتابة.

ولم يكن العالم يتميز بالثبات على المبدأ فحسب، وإنما كان يحترم كل صاحب مبدأ، مهما كان مختلفا عنه أو مغايرا له وذلك هو السبب الثانى الذى تتجسد به قيمته، لقد بدأ فى النقد الأدبى داعية متحمسا إلى الواقعية التى كان يراها السبيل السليم لتطور الإبداع العربى، وبالطبع كانت الواقعية التى انحاز لها أقرب إلى الواقعية الاشتراكية منها إلى الواقعية النقدية، لكن إيمانه بهذه الواقعية الأخيرة لم يقلل من احترامه للرواد الذين تعلم على أيديهم، وعلى رأسهم طه حسين الذى كان يحمل لتلميذه الخارج عليه، فكريا، المودة والتقدير،

رغم أنه كان يعنف بالعالم وصحبه، أحيانا، فى النقاش والخلاف

ويبدو أن محمود العالم ورث تقبل المختلف واحترام الاختلاف عن التقاليد الليبرالية التى نشأ فى ظلها ومن يقرأ كتابه وعبد العظيم أنيس فى الثقافة المصرية من منظور جديد، يجد أن عنف الخلاف فيه لم يصل إلى الدرجة الجدانوفية الخطرة التى كانت لا تتردد فى استئصال المختلف معنويا وحافظ العالم على هذه السمة فيه، فجعلنى، شخصيا، أقترب منه وأزداد احتراما له مع الأيام، لأنى كنت أعلم علم اليقين احترامه لتفكيرى المخالف ونقدى لعدد من مواقفه النقدية، ومنها نقدى الحاد لكتابه فى الثقافة المصرية.

ولذلك كانت السمة الثالثة لفكر العالم ونقده الأدبى هى عدم الجمود والتجدد والانفتاح على كل جديد ومن يقارن بين ما كتبه عبد العظيم أنيس، فى كتابهما المشترك، عن نجيب محفوظ سنة_1955_ وما كتبه العالم نفسه فى كتابه تأملات فى عالم نجيب محفوظ سنة_1970_ يجد الفارق كبيرا بين المنظور الواقعى الذى تقوقع فى المدار المغلق للواقعية الاشتراكية والمنظور الرحب الذى أخذ يفهم الواقعية بوصفها واقعية بلا ضفاف.

ولم يتوقف أمر التجدد على النقد الأدبى وإنما جاوزه إلى نقض التيارات الحداثية من منظور يسارى مرن، ودليل ذلك كتابه عن هربرت ماركيوز أو فلسفة الطريق المسدود الذى صدر عن دار الآداب فى بيروت سنة_1972_ وهو كتاب يؤكد ضرورة مساءلة النظريات الجديدة ومساءلة الذات أثناء فعل المساءلة نفسه وأضيف إلى هذه السمة ما يلزم عنها، وهى تشجيع كل جديد يؤمن العالم بأصالته ولذلك وقف فى صف الشعر الحر منذ الخمسينيات، ضد العقاد الذى كان يحيل قصائد صلاح عبد الصبور وحجازى والعنتيل إلى لجنة النثر للاختصاص وقد كتب مقالا لا أنساه فى تحية ديوان صلاح عبد الصبور الناس فى بلادى الذى كان حدثا استثنائيا فى تاريخ الشعر المصرى الحديث ولم يتردد فى خوض معارك من أجل الدفاع عن هذا الشعر ضد الذين هاجموه واتهموه بالكفر والعمالة للغرب، وأطلق بعضهم مثل صالح جودت اسم القرامزة على شعراء الشعر الحر، سخرية واستهزاء واتهاما على السواء فالقرمزية قريبة فى لونها من اللون الأحمر الذى هو لون أعلام الدول الشيوعية،

والقرامزة قريبة فى بنيتها الصوتية الصرفية من القرامطة وهى



الفئة التى ظل أهل السلف يتهمونها بالكفر والإلحاد والثورة الدموية، إلى أن أنصفها طه حسين فى مقاله العلامة الذى يقارن فيه بين ثورة القرامطة وثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس فى روما. ويصعب أن أغفل، فى هذا السياق، أن محمود العالم كان أول من قدم البنيوية إلى القراء العرب، وذلك فى ذروة اشتعال المعركة بين البنيوية وأعدائها فى الحياة الفرنسية، وكان ذلك فى المقالات التى واصل نشرها فى مجلة المصور فى الستينيات، وقد تعلمت منها معارفى الأولى عن أسماء رولان بارت ولوسيان جولدمان وغيرهما، وظللت أحتفظ بهذه المقالات التى قرأتها، فى مرحلتى الجامعية الأولى، إلى أن رأيتها منشورة بعد ذلك بسنوات عديدة فى كتابه البحث عن أوروبا الذى صدر عن المؤسسة العربية للدراسات، فى بيروت سنة_1975_ ولم أكن وحدى الذى تعلمت من العالم معانى الثبات على المبدأ واحترام الاختلاف وتقبل الجديد، بل كنت واحدا من أبناء جيل كامل تعلموا منه،

وأفادوا من كتاباته على امتداد الوطن العربى الذى خسر بوفاته رمزا وقيمة وحضورا خلاقا، يتكامل فيه الإنسان موقفا وسلوكا، فكرا وممارسة على كل المستويات ■

• • •

لا أزال أذكر المرة الأولى التى رأيت فيها الأستاذ محمود العالم كما كنا نسميه،

وكانت الأستاذية تعنى لدينا معنى أقرب إلى معناها الأكاديمى الذى يشير إلى الوصول إلى آخر درجة فى السلم الأكاديمى، والوصول إلى المرحلة العلمية التى تجعل من صاحبها أستاذا لأجيال متعاقبة من الباحثين وقد كان العالم أستاذا حقيقيا بهذا المعنى، رغم أنه لم يحصل على درجة الدكتوراه التى كان على أهبة التسجيل لها، ولكن أدركته أزمة مارس_1954_ التى كانت أزمة الديموقراطية فى مصر ومحنة الحياة الجامعية الأولى على السواء؛ فقد أطاح مجلس قيادة الثورة بنحو خمسين أستاذا طردوا بقرار سيظل نقطة سوداء فى تاريخ الثورة المصرية وكان محمود أمين العالم قد فرغ من أطروحة الماجستير فى الفلسفة فى موضوع فلسفة المصادفة الذى نشره كتابا سنة_1971_ عن دار المعارف المصرية ولم أكن أعرف محمود أمين العالم شخصيا عندما دخلت الجامعة، إنما عرفت اسمه ومكانته من زملائى الطلبة الذين كانوا منتمين إلى فصائل اليسار المختلفة خلال النصف الأول من الستينيات.

وقد استعرت من أحدهم كتابه وعبدالعظيم أنيس فى الثقافة المصرية واكتسبت منه محبة الواقعية دون التورط فى ضيق أفق الواقعية الاشتراكية التى لم أستطع تقبلها، ربما بسبب موقف عبدالعظيم أنيس، رحمه الله، من كتابات نجيب محفوظ الذى أصبح كاتبنا الأول والأثير وكنت قد قرأت فى سنة_1965_ حوارات العالم ومداخلاته فى ندوات المسرح المنشورة بمجلة المسرح التى كان يرأس تحريرها رشاد رشدى، رحمه الله، النقيض الفكرى للعالم الذى جذبتنى إليه استقامة منطقه فى المحاجة وظللت أتابع كتاباته بعد ذلك دون أن أراه أو أعرفه، إلى أن كان مسرح الجيب يعرض مسرحية أنجولا لبيتر فايس التى أخرجها إخراجا مبهرا أحمد زكى، وكان النص العربى من ترجمة يسرى خميس، وكنا فى ذلك الوقت متوهجين بحماسة مقاومة الاستعمار الذى أخذ يحمل عصاه ويرحل، متلكئا فى بعض الدول، ومنها أنجولا الإفريقية التى كتب عنها فايس مسرحية تسجيلية، أخرجها أحمد زكى على نحو جديد، مستخدما حركة المجموعات والألحان والأشعار التى تؤديها، إنشادا.

_ المجموعات التى خلبت لبنا فى ذلك الوقت وكنت جالسا فى الصف الثانى مع زوجتى التى كنت قد تزوجتها منذ أشهر وكان الأستاذ العالم يجلس فى الصف الأول، فقد كان يترأس هيئة المسرح فى ذلك الوقت وظللنا نحن

المتفرجين مشدودين إلى العرض الذى وصل إلى ذروته فى الخاتمة مع أغنية جماعية تؤديها مجموعة العرض وقد ألهبت أغنية الختام حماسنا، فأخذنا ننشد مع المؤدين، كأننا فى مظاهرة، ولفت انتباهى الأستاذ العالم الذى كانت حماسته بالغة، ربما أكثر منا نحن الشباب وكان مندمجا بكليته فى التصفيق بيديه على إيقاع اللحن، وجسده كله يهتز مع اللحن على نحو لفت انتباهى إلى حماسه البالغ، وصدقه الرائع فى الانفعال بما يثير إعجابه الطريف أن هذا المشهد الحماسى ظل يتكرر عبر السنوات، وخلال المواقف التى كانت تدفع العالم إلى الحماسة، سواء فى الاستماع إلى فكرة أو محاضرة، أو مشاهدة عمل فنى، فإذا به يندفع بكل مشاعره فى التعبير عن إعجابه الحماسى بما يسمعه أو يراه وكان هذا المشهد الأول هو بداية إعجابى بمحمود العالم، وحرصى على متابعة كتاباته، رغم ابتعاده عن مصر لسنوات طويلة، فى المنفى الاختيارى الذى بدأ بإنجلترا وانتهى بفرنسا التى ظل فيه ا لسنوات طويلة أستاذا للآداب العربية، بناء على تدخل المستشرق الشهير جاك بيرك الذى كان صديقا للعرب، عارفا قدر أمثال محمود أمين العالم ولم يكن العالم يتوقف عن الكتابة فى منفاه، وقد قرأت له بحثا، يشيد بمجلة فصول التى كنت نائبا لرئيس تحريرها الدكتور عز

الدين إسماعيل، وتكرم بوضع اسمى ضمن التيار الشاب الذى يمثل الحداثة النقدية، فكتبت إليه شاكرا، وداعيا بأياه إلى الكتابة فى فصول التى كنت أومن أنها فى حاجة إلى كتابة أمثاله من أبناء الجيل الذى أسهم فى تأصيل معنى الواقعية فى النقد العربى المعاصر، ومن عباءته خرجت أجيال مضت على دربه الواقعى، ولكنه أجاب شاكرا ولعله آثر أن يجنبنى حرج الكتابة فى عصر كان رافضا لسياساته رفضا كاملا.

ومضت الأيام وتوفى السادات بأيدى من أراد أن يكونوا حلفاءه فى ضرب قوى اليسار المصرى والناصريين والقوميين بوجه عام وعاد العالم إلى مصر، وأخذ يمارس نشاطه، ويشرع قلمه فى مواجهة ما يستحق أن يواجه، ولدعم كل ما يستحق أن يدعم، واضعا فى اعتباره حق القارئ العربى فى أن يعرف، مؤمنا بما كان يردده الفلاسفة الذين يعرفهم من أن المعرفة قوة، وإن تنوير الشعب هو السبيل الوحيد لتحريره، شريطة أن يكون فعل التنوير من القاعدة إلى القمة، وليس هابطا من الأعلى، دون أن يتسلل إلى وجدان الجماهير وعقولهم منذ اللحظة الأولى لتنشئتهم الاجتماعية وكان من الطبيعى أن ألتقى به فى الندوات، خصوصا تلك التى كان يشرف عليها فى دار الثقافة الجديدة التى كانت تصدر من إحدى غرف الشقة



التى تقع فيها مجلة قضايا فكرية التى كانت بحق أهم مجلة فكرية شهدتها الثقافة العربية فى وقتها، وذلك بالملفات التى خصصتها لأهم قضايا الفكر المعاصر التى اقتحمتها مقالات المجلة وأبحاثها بجرأة بالغة ولم تكمل المجلة مسيرتها المنتظرة، وذلك لأسباب عديدة، أهمها عدم توفير التمويل الكافى.

ـ فظل العالم ينتظر إلى أن أصبح مقرر لجنة الفلسفة فى المجلس الأعلى للثقافة، بعد مرض الدكتور فؤاد زكريا، متعه الله بالصحة وطول العمر، فكان دينامو اللجنة الذى استطاع تحويلها إلى ساحة رأى مفتوحة لكل الآراء، وذلك فى الندوات التى كان يشرف عليها، فضلا عن مجلة الفلسفة والعصر التى لا تزال أهم دورية أصدرها المجلس الأعلى للثقافة، وأشرف أننى يسرت كل السبل لإصدارها، حين كنت أمينا للمجلس الأعلى للثقافة، أفيد من خبرات العالم وأبناء جيله الذين صعدوا بالمجلس الأعلى إلى ذروة غير مسبوقة من العمل والفاعلية أما الذكريات الشخصية التى لا تخلو فيها علاقتى بالعالم من حنو الأب وحضور الأستاذ وتسامح المختلف، فما أكثرها وأقربها إلى القلب ■

وفاء للأمل الاشتراكى

فريدة النقاش

لن نغيب أبداً عن ساحة شعبنا وبلادنا، ساحة مصر كلها، ساحة النضال الشعبي،، سنواصل الرسالة التي نؤمن بها محمود العالم

أدب ونقد

يرحل محمود أمين العالم وهو واحد من أكبر مفكرى العرب الماركسيين فى العالم الثالث فى الوقت الذى تستعيد النظرية والفلسفة الماركسية تألقها وجاذبيتها فى كل أنحاء العالم وتصل أحزاب اشتراكية تباعا إلى السلطة فى بعض البلدان بعد أن كانت قد تعرضت لهجوم ضار عبر عقدين إثر سقوط المنظومة الاشتراكية ثم دخول كل البلدان التى كانت قد دخلت ضمن هذه المنظومة إلى الراسمالية مرة أخرى.

ويبدأ الكادحون والطبقة العاملة فى هذه البلدان أشواطا جديدة من النضال من أجل الاشتراكية وتحت رايتها معتمدين على هذا التراث المجيد الذى راكمته الإنسانية كلها عبر مئات السنين فى الكفاح الفكرى والعملى من أجل عالم جديد ترفرف عليه رايات المساواة والعدالة والكرامة الإنسانية، ويبدأ التاريخ الحقيقى للبشرية ولو بعد حين خروجا من الهمجية والاستغلال والدناءة.. لكى يصبح العالم جديرا بإنسانية الإنسان الذى جاهد وعمل بدأب عبر آلاف السنين ليخرج من أعطاف الوحش ويشكل وعيه بذاته ككائن مفارق للحيوانات يعلو عليها بالعقل والأحاسيس والإدراك.

وقد عاش الإنسان فى بداية نشأته على الأرض فى وفاق بسيط مع ذاته ومع الطبيعة والعالم من حوله إلى آن بدأت مجموعات من البشر تتطلع إلى التسلط والهيمنة عبر ملكية وسائل الإنتاج من أرض وحيوانات.. وبدأ الإنسان يتفلسف وينتج الأفكار والنظريات وهو يصارع من أجل تحقيق المثل العليا على الأرض التى مهدها بكده وعرقه، وفى سياق هذا الصراع بين الذين نجحوا بأساليب شتى فى الهيمنة على الثروات وبين الكادحين الذين لا يملكون، وفى ظل مستوى من التطور العالى للإمكانيات البشرية ونمو الصناعة ولدت الفلسفة الماركسية مع بروز الملامح المميزة للطبقة العاملة فى البلدان الرأسمالية المتطورة فى منتصف القرن التاسع عشر، وعلى العكس من توقعات «كارل ماركس» و«فريدريك انجلز» اندلعت الثورة الاشتراكية الكبرى والأولى عام ١٩١٧ فى بلد متخلف صناعيا يغلب عليه الطابع الزراعى هو روسيا.

واتخذت هذه الثورة طابعا عالميا وبقى الاتحاد السوفيتى سندا مبدئيا لكل حركات التحرر فى العالم إلى أن تفكك فى نهاية المطاف حين أخفق فى السباق الوحشى الذى جرته إليه الرأسمالية.. مستنزفة قواه إضافة لعوامل قوية أخرى فى العلاقات الاجتماعية والممارسات البيروقراطية للحزب الشيوعى السوفيتى.

من بين آلاف الماركسيين فى العالم العربى الذين اهتزت ثقة بعضهم فى صوابية الأفكار وجدوى المسعى رغم آلام الطريق وقف «محمود أمين العالم» فى قلب الذين واصلوا الدفاع عن الفلسفة والنظرية مقدما إضافاته الخلاقة وقادرا على إلهام المئات من التلاميذ والمناضلين مستخدما عقله النقدى الثاقب، مبسطا رؤيته الكونية الشاملة للصراع العالمى، وملتقطا بعض أهم المفاصل والقضايا التى أدت إلى إخفاق التجربة الاشتراكية الأولى فى السباق، وهى التطور العلمى والتكنولوجى، وكعادته كمفكر قلق يطرح أسئلة أكثر من طرح الأجوبة، وهو يتشوق للمزيد من المعرفة فى كل لحظة قدم مساهمة نظرية مهمة فى هذا السياق حين أدرك أنه يستحيل الفوز الاشتراكى فى المباراة الاقتصادية مع الرأسمالية إلا فى ظل الاستيعاب السريع والعميق والكامل لمنجزات الثورة العلمية والتكنولوجية التى تتوقف عليها بصورة جوهرية فعالية الإنتاج الاجتماعى والقدرة على توزيع ثماره بشكل عادل يقربنا من الأهداف الاشتراكية، وقال إن أخطر ما يمكن أن تفعله الدول النامية فى هذه القضية هو استيراد التكنولوجيا الجاهزة دون معرفة وهو الطريق الذى سلكته الصين فيما بعد حين وطنت التكنولوجيا وطورت العلم.

أدب ونقد

تماما كما سبق أن قدم مساهماته الفكرية فى ميدان النقد الأدبى



وعلم الجمال حين رأى الجمال كهدف، وأضاء النقد الأدبى كعلم أصيل من علوم المجتمع هو نفسه أيديولوجيا كاشفة للأيديولوجيا الكامنة وغير المرئية فى النص الأدبى باعتباره إضاءة جمالية لواقع العلاقات الاجتماعية فى خاتمة المطاف محرضا على الأجمل والأرقى.

كذلك قدم العالم أفكارا مهمة فى بناء الحزب والجبهة الوطنية دون أن يعتبر مقولات المفكرين والفلاسفة الكبار تمائم أو أيقونات نقدها بشجاعة رغم الأخطاء العملية التى وقع فيها فى ظل تعاونه مع الناصرية حين يراهن على فعالية الشيوعيين كأفراد داخل منظماتها التى سرعان ما استولت عليها الطبقة الجديدة كما وصفها جمال عبدالناصر بمرارة وهو يقرر أن ينشىء منظمة سرية طليعية داخل الاتحاد الاشتراكى إلى أن انهار البناء كله ومن كل الحالات لم يفقد ,محمود العالم، ثقته أبدا فى أن الاشتراكية هى مستقبل الإنسانية وظل وفيا طيلة عمره لهذا الأمل الذى تعلقت به أفئدة وعقول ملايين البشر على امتداد المعمورة كعبة للرجاء.

وسوف تظل إنجازات العالم الفكرية منهلا عذبا لكل القوى الاشتراكية والديمقراطية وهى تكافح من أجل عالم جديد ترفرف عليه رايات الاشتراكية ويسيطر فيه البشر على مصائرهم بحرية وأمان.. ولذا فإن مثله لن يموت ■

أنيس: عالم فذ وناقد أديب

د. جلال أمين

١- يتمتع الدكتور عبد العظيم أنيس بدرجة من التقدير والمحبة من المثقفين المصريين يندر أن يتمتع بها مفكر معاصر أخر فى مصر.

ذلك انه يجتمع فيه عدد من الخصال التى قد تبدو لأول وهلة متضادة، ومن النادر آن تجتمع فى شخص واحد. إنه عالم فذ فى الرياضيات ولكنه يهوى الأدب ويكتب فى النقد ويقيم الأعمال الأدبية تقييماً يبعث الثقة فى سلامة حسه الأدبى والجمالى، فإذا كتب ذكرياته عن شخصية مهمة أو حتى عن أحداث شخصية بحتة توفرت لمقالاته درجة عالية من التشويق للقارئ وكأنه يقرأ قصة، ووجد القارئ حتى فيما يرويه من أحداث شخصية، مغزى عاماً جديراً بالتأمل، وهو يكتب فى قضايا معقدة فى السياسة أو الثقافة أو الفلسفة فيحولها إلى قضايا بالغة الوضوح والسلاسة، فيرد القضية المعقدة إلى عناصرها وكأنه يحل بعض المعادلات الرياضية.

وهو رجل حاد وصارم فى أحكامه الأخلاقية، ينفر من أنصاف الحلول، ولا يغض البصر عن الخطأ لمجرد اقترانه ببعض الصواب، ومع ذلك فهو دائماً يكتب بأدب وبلا انفعال وبأسلوب لاى عرف الخطابة أو المبالغات، وإنما يأتى كتاباته لا من نبرتها العالية بل من عمق التحليل وشموله وسلاسة اسلوبه.

لا يمنعه إجماع الناس على التهليل لشخص أو موقف من التمييز

بين الصحيح والباطل فى سرية هذا الشخص ومواقعه، فعل ذلك مثلاً فى تقييمه للدكتور زكى نجيب محمورد وفلسفته الوضعية المنطقية؛ فبينما حمد للدكتور زكى نجيب دعوته لأعمال العقل وتصديه لغوغائية الذين يستخدمون النصوص التراثية استخداماً يحتقر عقل الإنسان عاب عليه تأييده لزيارة السادات للقدس فى عام ١٩٧٧ ولمعاهدة الصلح مع إسرائيل فى ١٩٧٩، فضلاً عن استهجانه لقيام د. زكى نجيب فى وقت مبكر من حياته بترجمة كتاب ،اخترت الحرية، لكرافشنكو لحساب مؤسسة فرانكلين كجزء من الدعاية الأمريكية ضد الاشتراكية.

كما انتقد د. زكى نجيب لأنه لم يميز تمييزاً كافياً بين قضية الانفتاح الثقافى على الغرب وقضية الغزو الثقافى التى يعتبرها د. أنيس جزءاً من قضية أوسع هى قضية الاستعمار الغربى ،مجلة أدب ونقد، عدد إبريل ١٩٩٢،.

ويجرى د. أنيس مثل هذا التمييز فيما يتعلق بالدكتور أحمد زويل بمناسبة الضجة الإعلامية التى أحيط بها لدى حصوله على جائزة نوبل فى ١٩٩٩، فبينما أثنى د.أنيس على قرءات د. زويل العلمية ونبوغه ، انتقده لتأييده لجماعة كوبنهاجن التى تروج للتطبيع مع إسرائيل ، ولقضائه عاماً كاملاً فى معهد وايزمان بإسرائيل والقائه خطاباً فى الكنيست الإسرائيلى.

فكان د. أنيس يقول مع الواقعُ أن هذا الرجل قد نبغ وتفوق فى العلم فوجبت تهنئته، ولكنه اتخذ موقفاً سياسياً خاطئاً فوجب توبيخه ، ،جريدة الأهالى، ٣ نوفمبر ١٩٩٩،.

٢- والدكتور عبد العظيم أنيس يصنف عادة بين المفكرين الماركسيين ولكنه يختلف عن كثيرين ممن عرفتهم أو قرأت لهم من الماركسيين المصريين أو غيرهم فهو مثلاً نادراً ما يستهشد فى كتاباته بقول أو رأى قال به ماركس أو انجلز أو لينين، فالمهم لديه هو الرأى الصحيح وليس مصدر هذا الرأى والواقع فى منظر د. أنيس أكثر ثراء بكثير مما يبدو من خلال كتابات الكثيرين من الماركسيين، كما أن الواقع المصرى الذى يكتب عنه د.أنيس هو واقع مصرى مائة بالمائة ولا يمكن أن يبدو وكأنه واقع روسى أو صينى، وأظن أن هذا هو أحد الأسباب المهمة التى جعلت د. أنيس لا يتأثر، من الماركسيين. فلا هو نكص على اعقابه وأعلن تبرأه من الماركسية، ولا هو بحث لنفسه عن مظلة أخرى يحتمى بها، ولا هو أخذ يردد بمناسبة أو غير مناسبة أنه لازال ماركسياً، ولا هو أصيب بالاكتئاب أو توقف عن الكتابة وعن إعلان مواقفه من القضايا السياسية المستجدة.

عندما أحاول أن أفسر على ضوء هذا، نوع الانتساب أو الولاء الذى يحمله د. أنيس للماركسية أتذكر أستاذة الاقتصاد البريطانية الشهيرة جون روبنسون التى لم تكن هى نفسها ماركسية، إذا كانت ترفض الكثير من أفكار ماركس الاقتصادية والفسلفية، ولكنها كانت تقبل بعض نظرياته الاقتصادية وتتعاطف بشدة مع موقف ماركس الأخلاقى وكراهيته للاستغلال والظلم، وكانت تعتبر أن ذلك الموقف الأخلاقى فى الماركسية أهم بكثير من بعض نظريات ماركس العلمية.

وفى حوار دار بين الأستاذة جون روبنسون وأحد زملائها من الاقتصاديين الماركسيين وجهت إليه هذه العبارة التى لا تخلو من قسوة:

«إنى أحمل ماركس فى عظامى بينما كثيرون من الماركسيين يحملونه فقط فى أفواههم». كانت تقصد بهذه العبارة أنها تتبنى فقط ما تعتبره صحيحاً فى الماركسية، وتهضمه وتمزجه بما تعتقد بصحته من أفكار الآخريين وتطبقه على ما يصادفها من مشكلات واقعية، بينما يكتفى كثير من الماركسيين بترديد أقوال ماركس دون تمييز كاف بين الصحيح والخاطئ..

الملائم وغير الملائم، فإذا طبقوها على الواقع كثيرا ما يقعون فى الخطأ.

من متابعتى لكتابات د. عبد العظيم أنيس ولمواقفه السياسية أميل إلى الاعتقاد بأن الرجل، وإن كان ماركسياً فإنه من نوع جون روبنسون، هذا النوع الذى «حمل ماركس فى عظامه وليس فى فمه»، يزيد من هذا ما قاله د. أنيس فى حديث مستفيض «نشر فى عدد أغسطس ١٩٩٣ من مجلة أدب ونقد» فى ندوة عقدتها المجلة بمناسبة بلوغ د. أنيس سن السبعين، فعندما سأله أحد الحاضرين «هل أفلست الماركسية؟» قال د. أنيس:

برغم الانهيارات التى وقعت فأنا لا أزال على قناعاتى، بشكل عام، بالماركسية، ولا أزال اعتبر نفسى ماركسياً ولكن حينما نتأمل ماضينا الطويل سنجد أننا عاملنا الماركسية بشكل دوجما، كنظرية جاهزة فيها إجابة على كل الأشياء وحلول كل المشاكل، بحيث لم ننظر إلى هذه النظريات كمقدمات قابلة للتطوير والإضافة والتعديل، ولم ننظر إلى نسبية كثير من قوانينها..

نشأت الماركسية فى ظل ظروف معينة فى القرن التاسع عشر، وكانت صحيحة لكن العالم كله بتغيير، بحيث من الممكن ألا تعود بعض هذه القوانين صحيحة، فيحتاج الأمر إلى تطوير. ومن ناحية أخرى فإننا قد تعاملنا مع شخصيات وقادة الماركسية التاريخية باحترام يصل إلى حد «التقديس».

صحيح أن هذه الشخصيات جديرة بالاحترام، فمازال رأيى لم يتغير



فى عبقريات ماركس وإنجلز ولينين، ولكن ذلك لا ينفى أنهم ارتكبوا أخطاء!

وعندما تطرق للحديث إلى الوضع الحالى فى العالم العربى، وعن موقفه من التيارات الإسلامية فى مصر والوطن العربى، قال:

«لننظر مثال «حماس» فى فلسطين المحتلة، ولا ينبغى أن نضحك على أنفسنا فى ذلك. الحقيقة أن الجهات الوحيدة الآن التى تقوم بعمليات فدائية داخل الأرض المحتلة هى حماس والجبهة الشعبية.. لاشك أنى كماركسى كثير من التحفظات ، نحن نختلف فكرياً اختلافات جذرية . لكننى أحياناً أحس أن فهمى هويدى فى المسائل السياسية يلتقى معى فى كثير من المسائل ضد إسرائيل، وضد أمريكا، وضد الفساد فى النظام السياسى، ضد السوق الشرق أوسطية..»

٣- كنت فى العشرين من عمرى ١٩٥٥ عندما ظهر كتاب « فى الثقافة المصرية» لعبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم، وهو ليس إلا كتاباً صغيراً جمع فيه المؤلفان بعض مقالاتهما التى سبق صدورها فى بعض الصحف. ولكن الكتاب أحدث دوياً كبيراً، وظل حديث المثقفين لفترة طويلة، كما لايزال يعتبر إحدى العلامات المميزة فى تطور الثقافة المصرية، لا أظن أنه كان من الممكن أن يصدر هذا الكتاب «بل ولا حتى أن يكتب» أو لا قيام ثورة يوليو قبل صدوره بثلاث سنوات.

فكما تجرأت الثورة على المقدسات السياسية فى مصر «الملك والاقطاع والباشوات» تجرأ مؤلفا هذا الكتاب على المقدسات الأدبية «طه حسين والحكيم والعقاد والمازنى... إلخ».

فتن الشباب من جيلى بالموقف الذى عبر عنه هذا الكتاب الصغير، وهو موقف يمكن تلخيصه فى عبارة وجيزة، وهى أن العمل الأدبى لا يجب أن يحكم عليه فقط «بل ولا فى الأساس» طبقاً لمعايير الفن والجمال وحدها، بل يجب أن يخضع أيضا لمعيار الالتزام الاجتماعى بأن قضية اجتماعية يلتزم ولصالح أى الطبقات يتكلم؟ أظن أن هذه القضية كانت أن تكون محسومة اليوم، ولكنها لم تكن محسومة حينئذ، بل أظن أن هؤلاء الرجال العظام طه حسين والعقاد والحكيم والمازنى فوجئوا بها، وكأنهم لم يكونوا قد فكروا فيها من قبل.

وقد استشاط بعضهم غضباً - خاصة العقاد - وانهال على المؤلفين بعبارات التحقير والسخرية فرد عليه عبد العظيم بمثلها، مما تضمنه أيضا هذا الكتاب.

كنا نتعاطف مع الكاتبين الشابين، اللذين ما كانا قد تجاوزا الثلاثين بكثير، لسبب بسيط وهو شدة حماسنا للإصلاح الاجتماعى،

ولنفاد صبرنا من حدة الازدواجية الاجتماعية التى كانت مصر تعيشها فى ذلك الوقت.
وكنا نتحرق شوقاً لكتاب وفنانين يعبرون عن أحوال وآمال الأغلبية الساحقة من الشعب المصرى، التى كانت تتجاهل تجاهلاً تاماً فى الحياة الثقافة الرسمية ووسائل الإعلام كان يسوؤنا بشدة مثلاً أن نسمع طه حسين مرة وهو يخطب فى حفل افتتاح جامعة الإسكندرية ،جامعة فاروق الأول حينئذ، مرحباً بالملك قائلا: ،شرفت العلم يا مولاى!، وكان يجرح مشاعرنا أن نسمع محمد عبد الوهاب وهو ينشد فى أغنية الفن:
،الفن مين يعرفه

إلا اللى عاش فى حماه

والفن مين ينصفه

غير الفاروق ورعاه،

كان كتاب ،فى الثقافة المصرية، إذن أشبه بمانيفستو دشن به شعار ،الفن للمجتمع، بدلا من شعار ،الفن للفن،.

٤- بعد عشرين سنة أخرى نشر عبد العظيم أنيس - وكان قد أصبح فى الثالثة والخمسين - كتاباً آخر بعنوان ،رسائل الحب والحزن والثورة، . عن دار روزاليوسف ١٩٧٦، قرأته عند صدوره فترك فى نفسى أثراً بالغا ، وإن كان أثراً مختلفاً فى نوعه اختلافاً تاماً عن أثر كتاب ،فى الثقافة المصرية، كان هذا الكتاب الجديد، فيما عدا مقدمة وخاتمة قصيرتين، مجموعة رسائل متبادلة بين عبد العظيم أنيس وزوجته الصحفية عايدة ثابت، أثناء وجوده فى السجن فى أوائل الستينيات. وعلى الرغم من أن المقدمة بها بعض المعلومات المهمة عن المناخ السياسى الذى ساد مصر فى ذلك الوقت فإن أهمية الكتاب وأثره ينبعان من جانبه الإنسانى وحده. إنه يروى بعبارات مباشرة - ولكنها رقيقة للغاية - قصة حبه لعايدة ثابت ، وكيف أنه لم يكن قد مر على زواجه منها أكثر من شهرين ، كانا من أسعد أيام حياتهما، حين جرى اعتقاله فى أول يناير ،١٩٥٩ ،فصلت عايدة ثابت من عملها فى صحيفة المساء، وإن لم تعتقل، كما فصلت أنا أيضاً إثر اعتقالى، وأصبحنا نحن الاثنان نواجه الحياة بلا مورد، أنا فى المعتقل وهى فى الخارج،.
ثم يتضمن الكتاب الرسائل المتبادلة بينهما خلال فترة الاعتقال، ولكن معظمها يتكون من رسائله هو إليها، إذ أنه لم يستطع الاحتفاظ برسائلها فى السنوات الثلاثة الأولى خوفاً من التفتيش المفاجئ والرسائل القليلة

التى استطاع الاحتفاظ بها من رسائلها تخاطبها فيها باسم «سعد» وتوقعها باسم «عنايات». وهما طبعا ليسا اسمه ولا اسمها، وإنما هما اسم المسجون الذى كان يتسلم الرسائل ويتظاهر بأنها رسائل موجهة إليه من أخته عنايات. ذلك أن المسجونين فى جرائم عادية أى المجرمين الحقيقيين كانوا يتمتعون بهذا الحق، حق تبادل الرسائل، بعكس المعتقلين السياسيين الذين كانوا محرومين منه!

ثم يروى عبد العظيم انيس فى خاتمة الكتاب قصة خروجه من السجن وهى قصة تصلح أن تكون فيلماً سينمائيا، ففى ٣ أبريل ١٩٦٤ تم ترحيله مع آخرين من زملائه من سجن الواحات إلى السجن الحربى بالقاهرة تمهيداً للإفراج عنه، دون أن يكون لدى أى فرد من عائلته أى علم بموعد الإفراج عنه، أو بما إذا كان سيفرج عنه على الإطلاق، ويصف شعوره وهو فى القطار الذى نقله من أسيوط إلى الجيزة بقوله:

«أحسست فى القطار بمشاعر شديدة الشبه لمشاعرى يوم عودتى من البعثة عام ١٩٥٢، لحظة اقتراب السفينة من شاطئ بورسعيد. لم أكن أعرف واحداً من المنتظرين على الشاطئ ولكنى كنت تواقاً إلى احتضانهم جميعاً كأنهم هم جميعاً أهلى وإخوتى. وعندما نزلت إلى الشاطئ وقابلنى أول حمال ابتسمت فى وجهه ابتسامة عريضة وشددت على يده مرحباً كأنما نعرف بعضنا البعض منذ زمان طويل. وأغلب الظن أنه نظر إلى فى دهشة لا يفهم لهذه التحية الحارة سبباً؟!

ثم يقول:

«كانت ابتسامات ضابط المباحث العامة فى انتظارنا.. قالوا لنا إننا سوف نكون فى بيوتنا بعد ثلاث ساعات عندما ينتهون من ملء استمارات البيانات اللازمة وتصوير كل واحد منا». وعندما سمح له باستخدام التليفون..

«.. حاولت أن أتصل بشقيقتى فتحية فى الدقى . وجاء صوت زوجها واضحاً يسأل: من المتكلم؟ وعندما أجبت صرخ الشيخ الكهل، كأنما مسته صاعقة ، منادياً على شقيقتى، وجرت إلى التليفون وهى تصرخ وتضحك وتزغرد وتبكى فى آن واحد لا تريد أن تصدق..

ولا أعرف ما حدث بالضبط بين إخوتى بعد هذه المكالمة، ولكنى علمت بعد ذلك أن وفداً من العائلة ظل ينتظرنى أمام الباب الأمامى للسجن الحربى فى العاشرة صباحاً حتى الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم.

أما أنا فقد فتح لى ولثلاثة من زملائى الباب الخلفى للسجن الحربى فى الساعة الرابعة بعد الظهر تماماً، وقيل لنا انصرفوا!

وخرجت إلى دنيا الحرية.. على جسدى سترة قديمة كانت ملقاة فى مخازن سجن الواحات سنوات، وفى يدى كيس ممزق من القماش به حاجيات الحلاقة ومعجون وفرشاة أسنان وغيار داخلى وكتاب عن موسيقى الشعر وآخر فى المنطق وبعض أبحاثى القديمة فى الرياضيات، وفى جيبى ورقة بخمسة جنيهات هى كل ما أملكه فى هذه الدنيا،.

ويصف عبد العظيم أنيس ما مر به فى طريقه من السجن الحربى إلى العمارة التى تسكن بها شقيقته ثم يقول:

،وعندما ارتقيت درجات العمارة - متجاهلاً المصعد - فى سرعة، وضغطت على جرس الشقة لم يكن فيها غير شقيقى وابنة عمى وأمها. أما الباقون فقد كانوا هناك.. عند الباب الأمامى للسجن الحربى ينتظرون! كانت شقيقتى تنتظر عودة صبى المكوجى بالفساتين التى أرسلتها للكى فى هذه المناسبة، وذهبت أبنة عمى تفتح الباب فى تثاقل للمكوجى الصغير فوجدتنى أمامها، وإذا بها تقع على الأرض مغشياً عليها!.. وعندما افاقت عرفت كل شىء .. عرفت أن عايدة ثابت بالإسكندرية فى زيارة لخالها ، وأن أولادى - أيضا خارج القاهرة - لكنها عادت فى المساء ، وكان لقاء .. وأى لقاء!،

وفى آخر صفحة فى الكتاب ينشر عبد العظيم أنيس آخر خطاب تسلمه من عايدة ثابت ، أرسلته إليه وهو فى الدانمارك فى أغسطس ١٩٦٥، وكانت ابنتهما حنان على وشك أن تولد، ويقول إنه اختار هذه الرسالة لكى يختم بها الكتاب ،لأنها تعبر عما أعانيه الآن، ١٩٧٦.

،زوجى العزيز..

وصلنى كارتك ارجو أن تكون الأمور قد استقرت . كما ارجو ألا تحمل هم الفلوس، استمتع بوقتك وعد إلينا فى صحة جيدة راضياً سعيداً.

المهم أنك وحشتنى أوى. وحشتنى كلماتك الحلوة عندما توقظنى فى الصباح وتقولى ،قومى بقى يا ماما، ، ومعك الوردة البنفسجية الجميلة. إننى أخرج كل صباح لأنظر إليها واكتفى بذلك حتى تعود وتقدمها لى مع قبلة الصباح. وحشتنى ضحكاتك ومشاكساتك وجلساتنا فى البلكونة البحرية. كل شىء هنا يذكرنى بك. ولكن كل شىء يلفه الصمت.. لا أحد أتحدث معه ولا أحد أضحك معه.. إننى وحدى هكذا دائماً حتى تعود إلى ،عايدة،.

●●●

أدب ونقد

عدت إلى القراءة من جديد فى هذا الكتاب . فلاحظت - بعكس ما



حدث عند إعادة قراءتي لكتاب «في الثقافة المصرية» - إنه لم يحدث أي تغير في درجة تعاطفي مع الكتاب عنا كانت عندما قرأته لأول مرة منذ أكثر من عشرين سنه. بل أظن أنه ترك في نفسي أثراً أقوى مما تركه في المرة الأولى. وقلت لنفسي: لعل السبب أن الآراء السياسية والاجتماعية قد تتغير حقاً من وقت لآخر، أما العواطف الإنسانية، خاصة إذا جرى التعبير عنها بهذه الدرجة من الصدق، فإنها باقية معنا إلى الأبد ■

عالم الرياضيات الوطنى

د. مينا بديع عبدالملك

أستاذ الرياضيات بهندسة الإسكندرية

فقدت مصر عالم الرياضيات المتميز وهاوى الأدب والناقد للأعمال الأدبية الأستاذ الدكتور عبدالعظيم أنيس

الذى كان مولده فى 15 يوليو 1923 وحصل على بكالوريوس خاص فى الرياضيات بكلية العلوم جامعة فؤاد الأول(حاليا جامعة القاهرة) فى عام 1944 عين بعدها معيدا بقسم الرياضيات . كلية العلوم . جامعة فاروق الأول (حاليا جامعة الإسكندرية)، سافر بعد ذلك الى لندن وهناك حصل على دبلوم الكلية الملكية بلندن فى الاحصاء الرياضى عام 1951 ولنبوغه الشديد حصل على دكتوراه الاحصاء الرياضى من جامعة لندن فى عام 1952 عاد بعدها الى أرض الوطن وشغل وظيفة مدرس الرياضيات البحتة بكلية العلوم . جامعة القاهرة، فى نفس العام بعدها سافر الى لندن وبها شغل وظيفة مدرس علم الاحصاء الرياضى بجامعة لندن عام 1955 وفى عام 1966 عين أستاذا للرياضيات البحتة بكلية العلوم . جامعة عين شمس، ثم فى عام 1983 عين أستاذا متفرغا بكلية التربية . جامعة عين شمس.

عندما وقع العدوان الثلاثى على مصر فى اكتوبر 1956 كان الدكتور عبدالعظيم أنيس فى لندن أستاذا مرموقا فى تخصصه، ولما وقع العدوان قاد مظاهرة وخطب فيها بحماس وطنى مندداً بالعدوان وترك لندن وترك عمله وعاد الى القاهرة، وما هى إلا سنوات قليلة

وبالتحديد فى الأول من يناير1959 حين تم اعتقاله، ففصلت زوجته عايدة ثابت . رحمها الله . وكانت صحفية بجريدة المساء، وفصل هو إثر اعتقاله ولم يكن قد مر على زواجه منها أكثر من شهرين، وأصبح كل منهما يواجه الحياة بلا مورد فهو فى المعتقل وهى فى خارج العمل!!

فى عام1976 صدر له عن دار روزاليوسف كتاب(رسائل الحب والحزن والثورة) وهو عبارة عن الرسائل المتبادلة بينه وبين زوجته الصحفية فى أثناء وجوده فى السجن، وفى نهاية الكتاب يروى قصة خروجه من السجن، وكما يقول أستاذنا الفاضل الجليل د. جلال أمين فى كتابه(شخصيات مصرية فذة . سلسلة اقرأ . دار المعارف 2003): هى قصة تصلح لأن تكون فيلما سينمائيا ففى3 ابريل1964 تم ترحيله من السجن مع آخرين من زملائه، من سجن الواحات الى السجن الحربى بالقاهرة تمهيدا للافراج عنه، دون أن يكون لدى اى فرد من أفراد عائلته أى علم بموعد الافراج عنه، ويسجل لنا د. عبدالعظيم أنيس مشاعره بقوله:

(... احسست فى القطار بمشاعر شديدة الشبه بمشاعرى يوم عودتى من البعثة عام1952 لحظة اقتراب السفينة من شاطئ بورسعيد، لم أكن أعرف واحدا من المنتظرين على الشاطئ ولكنى كنت تواقا الى احتضانهم جميعا كأنهم هم جميعا أهلى واخوتى، وعندما نزلت الى الشاطئ وقابلنى أول حمال ابتسمت فى وجهه ابتسامة عريضة وشددت على يده مرحبا كأنما يعرف بعضنا البعض منذ زمن طويل، وأغلب الظن أنه نظر الى فى دهشة لا يفهم لهذه التحية الحارة سببا)، وبأسلوب أدبى رقيق يصف لنا بعد ذلك كيف كان الاستقبال فى شقة شقيقته بحى الدقى بالقاهرة بأسلوب سهل وبأبسط الوسائل، وهو بذلك يرد القضايا العديدة الى عناصرها الأولية الذى هو المنهج الرياضى، وان كان أستاذنا الفاضل يقول إنه قد خرج الى دنيا الحرية فى3 ابريل1964 فإننى أقول إنه خرج الى عالم النور والحق والشفافية فى15 يناير2009 حين لا ظلام ولا ظلم ولا ضغينة ولا ضعف ولا حقد، بل هناك يكافئ مكافأة العلماء الأفذاذ الذين كانوا صادقين فى علمهم، ومكافأة الوطنيين الأوفياء الذين كانوا صادقين فى وطنيتهم، ومكافأة الفقراء الذين باعوا كل شىء واكتنزوا لأنفسهم الحقيقة التى هى أثمن من كل شىء ■

أجمل شيوعى رأته عين!!

د. محمد الباجس

والذى أكد فيه أن مذابح غزة بدأت فى كامب ديفيد التى وقعها السادات فى سعيه لإرضاء سادة البيت الأبيض.. فارتكب سقطة تاريخية وهى جريمة اعتراف مصر بالدولة الصهيونية مؤكدا أن شعوره بالغضب الشديد لبشاعة ما يجرى فى غزة يحمل فى تضاعيفه شعورا بالتفاؤل مبعثه انتفاضة الشارع العربى على هذا النحو الكاسح.. تلك الانتفاضة التى لن تتبدد أو تذهب سدى.. وإذا كان العصر قد شهد تراجعا مؤقتا للايديولوجيات فإن الدين بإمكانه جمع الناس وشحنهم بنوع من الحماس.. وهو ما تحتاجه القضية الفلسطينية فى تلك المرحلة الحرجة التى تعد من اسوأ الفترات التاريخية التى مرت على المنطقة. قال ذلك رغم اختلافه مع التيارات التى تبرر الصراع على أساس دينى.. .وهو أحد مفاتيح شخصية المفكر الأبرز محمود أمين العالم بل هو المفتاح الرئيسى لشخصيته دون جدال.

وتتداعى الذكريات متراجعة إلى عام ١٩٦٤ وكنا طلاباً لانزال نحبو فى الجامعة.. وقد فاجأنى الصديق العزيز د. نصار عبدالله وكان وقتها طالبا فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وشاعرا تنشر له الآداب البيروتية وغيرها. قبل أن يتخرج فيها ثم يعرج على كلية الآداب

كانت آخر كلماته التى نشرتها «الأسبوع» فى عددها الأخير الصادر قبل رحيله بيوم واحد..

ويصبح أستاذا شهيرا للفلسفة السياسية.. قال هامسا: لقد بهرتنى عدة دراسات عثرت عليها مصادفة تناولت الحضارتين العربية والإسلامية كتبها محمود أمين العالم وعرض فيها للتوحيدى وابن طفيل وابن رشد.. وغيرهم .. فرحت اسأل عنه وعرفت أنه شيوعى.. وقد توفى من سنوات.. فأخبرته أنه لم يمت.. بل كان معتقلا منذ اكثر من خمس سنوات.. وقد أفرج عنه مؤخرا مع عدد من زملائه بعد إعلان عبدالناصر للخيار الاشتراكى.. وفجأة انشقت الأرض عن محمود أمين العالم.. كان يسير ببطء متأمل.. باتجاه جلستنا على كافتيريا كلية الحقوق.. ومعه كامل زهيرى حيث شاركا فى ندوة فلسطين العالمية التى عقدت فى جامعة القاهرة وشارك فيها مفكرون من أنحاء العالم.

وكان لقاء .. ضحك «العالم» حتى دمعت عيناه.. ولما علم أن «نصار» شاعر سكن تماما يصغى إليه.. ويستزيده.. كانت قصائده. على حداثتها. تنهل من التراث الإسلامى قيماً ومعان ورموزاً.. و«العالم» يبدى إعجابه الشديد ويؤكد أن صديقنا الشاعر قد اتسق مع نفسه وثقافته وتراثه.. وراح يحدثنا عن شعراء الحداثة وقتها: حجازى وعبدالصبور وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة وغيرهم وأعمالهم التى اغترفت من التراث العربى والإسلامى واستهلمته.. فكتبوا عن الشهيد فى النجف.. وعدل عمر.. واشتراكية أبى ذر الغفارى.. وفضول المال.. ومذبحة القلعة.. واتسعت الحلقة وقال «العالم» إنه تربى فى كُتاب الشيخ السعدنى.. ووسط أسرة شديدة التدين.. وبيئة إسلامية.. وقد أفاد من ذلك كثيرا فى حشد كل القيم الايجابية التى يذخر بها تراثنا.. فى فهمه وإيمانه بالعدل الاجتماعى.

وهو ما يؤكد مرة ثانية المفتاح الأساسى لشخصية محمود أمين العالم المفكر الموسوعى، صاحب القامة التى لا تطاول.. فقد كان التسامح الفكرى أهم سماته.. دون أن يفرط فى ذرة من قناعاته.. يكن احتراماً للرأى الآخر باعتبار ان الحقيقة لها وجوه كثيرة.. وأن التعصب للرأى لا يعنى صوابه.. وظل طوال عمره الذى اقترب من التسعين متسامحاً.. بشوشاً.. حتى مع من يختلف معه.

فى ذلك الوقت كانت كلمة «الشيوعية» مازالت شيئا مبهماً وملتبساً ومخيفاً.. تغلفها افرازات الاستعمار الذى عانته مصر سبعين عاما.. وأعوانه من القوى الاقطاعية والرجعية.. وكان رسامو الصحف يبالغون فى تصوير مناخات الريبة.. والتوجس والعتمة والتجهم والزراية عند ذكر الكلمة واتباعها.. ويبدو أن كل ذلك قد ترك انطباعه على البعض ممن اتصلوا باليسار وانتسبوا إليه بشكل أو آخر.. فكان كل من قرأ صفحتين من مؤلفات ماركس أو مختارات

لينين يتقمص الحالة وتتلبسه الجهامة والتأفف والنزق، والادعاء باحتكار الحكمة والتعالى.. يتسقط أى مناسبة ليفرغ شيئا مما وقف فى حلقه.. لم يقدر على التخلص منه ولم يستطع هضمه.. وكان محمود أمين العالم وزملاؤه من «الكبار» بتسامحهم وبساطتهم وعلمهم الغزير وإيمانهم الحقيقى بالحرية والعدل الاجتماعى والاشتراكية ونضالهم واستعدادهم لدفع ثمن قناعاتهم سجنا وتشريدا واضطهادا.. الوجه المضيء للفكر الاشتراكى الذى عمل على محو كل ذلك التشوه.. وكان «العالم» بالذات الأسبق والأقدر على إقامة الجسور مع الأوساط الثقافية والفنية، بل إنه كان وراء كل الانجازات الثقافية والفنية التى حققتها ثورة يوليو بفكره واسهامه.. ولعل كلمته فى مؤتمر الأدباء العرب الثانى (٢٠ - ٢٧ ايلول ١٩٥٦) فى دمشق حيث كان عضوا فى وفد مصر الذى ترأسه «طه حسين» دليلاً على الخط الذى رسمه لثورة يوليو فى هذا المجال.. قال: «إن بلادنا ماتزال متخلفة، وماتزال أركان منها يتجاذبها الاقطاع والاحتكار والرجعية.. وأن الأغلبية من شعبنا أمى لا يقرأ ولا يكتب.. وقد نحتاج إلى أجيال من التثقيف والتوعية لشعبنا لو أخذنا طريق الكتاب وحده.. إن استعانتنا بالفنون الجماهيرية كالاذاعة والمسرح والسينما فى تصوير أدبنا وإذاعة رسالتنا لكفيل بأن يرفع من مستوى الوعى والتذوق والابداع بين امتنا.. وتحقيق أهدافنا القومية فى حماية الاستقلال وانجاز الوحدة العربية الشاملة.. ومن حقنا أن نعترف أن السينما فى بلادنا لاتزال تحتكرها فئة من الرأسماليين الجشعين الذين يتخذون منها تجارة للمباذل فى كثير من الأحيان.. من أجل هذا كله كان من واجبنا نحن الأدباء العرب أن نناضل من أجل تحرير السينما من الاستغلال والاحتكار وأن نجعلها فنا شعبيا وطنيا ومعها الاذاعة والمسرح.. وبهذا نتيح لأدبنا مستويات جديدة من النضج والابداع.. ونتيح له كذلك أن يكون بحق أداة اجتماعية ثورية حتى نحقق رسالتنا نحو أمتنا العربية التى هى رسالة الوحدة والاستقلال الكامل والديمقراطية الصحيحة والرفاهية والسلام».

وقد تجلت سماحته وفكره المحيط فى علاقته بالزعيم جمال عبدالناصر.. متجاوزاً عن أخطاء وخطايا «الأجهزة» فلم تدفعه معاناته الذاتية إلى حماقة الكفر بكل شيء.. وظل حتى آخر يوم فى حياته يكن لعبدالناصر ونزاهته وطهارة مسلكه تقديرا خاصاً، ويشيد بمشروعه القومى وقيادته لحركات التحرر الوطنى والخيار الاشتراكى.. وانفعل بالدورة الزمنية الخاطئة بعد رحيل

عبدالناصر وواجه السادات كاشفاً أبعاد انقلابه على عبدالناصر ومشروعه القومى.. ولعبة الصراع «المحكوم» بين فئات الشعب.. واحيائه للتيارات الإسلامية فى مواجهة التقدميين والناصريين والفتنة الطائفية التى مازالت مشتعلة حتى اليوم والأثرياء الذين انحاز لهم فى مواجهة الفقراء.. وكل ذلك ليضمن بقاءه على أريكة الحكم بغض النظر عن مصلحة الوطن.. وصحت نبوءة «العالم» فدفع السادات حياته ثمناً لما اقترفه ودبر له.. وإن كانت آثاره مازالت قائمة يتحصن خلفها ويدافع عنها أعمدة فاعلة داخل النظام ممن طفت بهم أيام السادات فتمددوا على آرائك السلطة والنفوذ.. وباركوا وشاركوا فى اتفاقية كامب ديفيد والصلح المنفرد مع عدو الأمس واليوم والغد.. والتى جرّمها «العالم» علانية.. وكانت وراء اعتقاله ومعه العديد من الكوادر اليسارية والناصرية.. ليفاجأ باتهامه بالخيانة العظمى.. فنهض بجسارة المفكر الملتزم يرد الاتهام إلى جلاديه.. فاتهم كامب ديفيد ومن وقعها بالخيانة العظمى.. فكان الافراج عنه وحده دون مقدمات.. وفتح أمامه الباب للنفى الاختيارى أستاذا فى اكسفورد ثم استاذا فى جامعة باريس.. ولم يعد إلا بعد مصرع السادات.. ليواصل نضاله منظرا وفيلسوفا وناقدا ومبدعا وفاعلا فى مختلف مجالات المعرفة.. ورمزا فى كل حركات الاحتجاج.. وصاحب رأى نافذ ورؤية كاشفة فى كل قضايا الوطن.. وكنا من فرط الحب نعتقد أنه لن يموت.. ولن تستطيع الأيام طى صفحة الضياء والألق، وسمو العقل والنفس.. لأننا مازلنا وسنظل بحاجة إليه.. يطرح علينا من فكره ما يبدد الظلمة.. وينير البصيرة ويعرض لأعمق الأمور فإذا هى فى متناول الجميع.. ولكنه فاجأنا بالرحيل.. أجمل شيوعى رأته عين.. وبكت لرحيله عين ■

كم بكينا
دمعتين ووردة!

د. عبد العظيم أنيس

حين طويت آخر صفحة من كتاب فريدة النقاش الجديد (السجن - دمعتان ووردة) أخذت أسأل نفسى: لماذا أقبلت على قراءة الكتاب بهذا النهم الغريب مع أن عالم السجن ليس جديدا بالنسبة لى وعلى كثرة مشاغلى فى هذا الموسم من السنة الأكاديمية؟

هل يكفى أن أقول إن صداقتى لفريدة هى السبب؟ لا أعتقد هذا سبب كاف..

قلت: ربما كان السبب أن عالم سجن النساء هو الجديد وربما كان السبب الأهم أن هذا الكتاب هو أول شهادة أقرؤها لمناضلة مصرية عن السجن مع كثرة شهادات الرجال الذين دخلوه لأسباب سياسية بدءا من كتاب العقاد (فى السجن) وانتهاء بكتاب فتحى عبد الفتاح (شيوعيون وناصريون) وكتابى (رسائل الحب والحزن والثورة).

نعم.. هذه إذن فريدة النقاش المناضلة والأم والزوجة والصحفية تدلى بشهادتها عن السجن الذى قضت فيه نحو شهرين فى أغسطس ١٩٧٩ عندما اقتادوها هى وزوجها حسين عبد الرازق من مصيف جمصة ثم أعيدت إليه مرة أخرى فى ٣١ مارس ١٩٨١ وقضت فيه نحو تسعة أشهر.

تم هذا كله فى مرحلة من أخطر مراحل مصر الحديثة مرحلة الردة الساداتية عندما خان نظام السادات كل تراثنا السياسى والوطنى والثقافى وأدار ظهره لمصالح هذا الوطن وتلك الأمة وداس باسم السلام كرامة الشعب وشهداءه بأحذية الغزاة الصهاينة والأمريكيين

عندما زيف الاستسلام فقيل إنه السلام.. أو بمعنى آخر عندما تمت خيانة كل التراث النضالى لثورة عرابى وثورة ١٩١٩ وثورة يوليو المجيدة تحت أعلام كامب ديفيد.

كانت التهمة التى وجهت إلى فريدة النقاش هى عضوية الحزب الشيوعى المصرى لكن كان ذلك شكلا لا أكثر ولا أقل، أما المضمون الحقيقى للتهمة فهو نشاطها ونضالها فى صف القوى الوطنية المصرية التى وقفت - دون حساب للربح أو الخسارة - ضد هذه الردة السياسية ضد الاستسلام وخيانة مصالح المواطن، فقالت ضمن الوف : لن يمر الصهاينة من هنا ونحن فى القاهرة وهى لاتزال صامدة فى هذه المعركة الحاسمة معركة نكون أو لا نكون : لم تطو اعلامها ولم تنزو فى ثياب الحداد!

عندما نقفل آخر صفحة من كتابها يأتينا من بعيد صوت فنان الشعب اللبنانى مارسيل خليفة وهو يغنى قصيدة الشاعر العربى:

أجمل الأمهات التى انتظرت ابنها

أجمل الأمهات التى انتظرته

وعاد مستشهدا

فبكت دمعتين ووردة ولم تنزو

فى ثياب الحداد.

وها نحن دائماً وعلى طول مسيرتنا الصعبة نبكى دمعتين ووردة، نترك للأجيال التى تلينا ليس دموعنا الغزيرة وإنما هذه الوردة التى تعهدناها من طينة شهدائنا من محبتهم لهذا الوطن وذلك الشعب بعماله وفلاحيه وجنوده ومثقفيه.

عندما سيقت فريدة فى المرة الأولى إلى زنزانة قذرة فى مبنى المباحث العامة سألها الحارس العجوز: لماذا جئت؟

قالت: لا أدرى ولكننى عضو فى حزب التجمع الذى تلاحقه الحكومة قال الحارس العجوز: حين تشتد العواصف ليس عيبا أن ينحنى الناس يا ابنتى.. تذكرى أولادك.. كيف يكون حالهم إذا تعرضت للحبس الطويل.

لكن لهذا الشعب حكمة أخرى غير حكمة هذا الحارس العجوز، غير حكمة الربح والخسارة وربما لم يكن هذا الحارس يعرف أن فريدة وزوجها حسين قد تركا وراءهما عندما أتيا إلى السجن طفلين فى المنزل هما رشا وجاسر، كذلك كان حال فتحية زوجة زكى مراد عندما أخذوها بعد مصرعه بشهور فتركت وراءها أربعة أطفال أصغرهم لم تكن قد أكملت عامين من العمر، وكذلك فعلوا بشاهندة زوجة شهيد كمشيش صلاح حسين الذى اغتاله الاقطاعيون فى زمن عبد الناصر

فتركت وراءها ابنتها الصغيرة باسمة وهى مأخوذة إلى السجن.

فريدة وفتحية وشاهندة.. هذا الثلاثى الفذ من نساء مصر فى سجون السادات لم يدعن بطولة زائفة فى هذا الموقف فكم سالت دموعهن حزنا على فراقهن لأطفالهن لكنهن تعلمن الصبر والصمود والتواضع وكان وضوح الرؤية عاملا مهما فى هذا التماسك وتلك الصلابة.

كتبت فريدة من السجن إلى ابنها جاسر تقول: نحن يا حبيبى نعيش فى ظل هيمنة هؤلاء الذين ابتذلوا ثقافتنا الوطنية والقومية وتراثنا ليقيموا أدلة على طيبة الظالمين..

ذلك ذنب عظيم لا يكفر عنه شئ مهما كبر.. فما بالنا لو كانت كفارتهم ذلك الابتهال الزائف إلى الله والتفتيش فى القرآن الكريم لاستخراج شهادة براءة لأعدائنا.. إن صلابتهم الحقيقية يا حبيبى وقرابينهم تقدم للبنتاجون والكونجرس والكنيست فهل ننتظر من هؤلاء أن يعرفوا لغة الغياب والحضور؟ هل تحزن يا حبيبى لأننا ننتمى إلى هذا الميلاد الصعب للعالم القادم؟

نحن فقط نغيب بهذا العذر القاهر فلا تحزن وانتظرنا دائماً.

وفى سجن القناطر كان صوت شاهندة النحاسى يدوى بحكمة القلب الذى عرف طريقه إلى تلك الحكمة من خلال المأساة.. مأساة مصرع الزوج برصاص الإقطاعيين واستشهاد شقيقها الطيار اشرف بقذيفة أمريكية صهيونية فى آخر يوم من أيام حرب الاستنزاف على ضفاف القناة.

ولم تتردد عندما رأت أحد ضباط المباحث يهم بالصلاة فى أن تمسكه من ذراعه وتقول له : «إن الله لن يقبل هذه الصلاة أبدا.. تعذب الناس ثم تتصور إن المغفرة سهلة! دا بعدك..» كما لم تتردد فى أن تنتزع بيديها القويتين أسلاك الشباك الذى حاول ضابط المباحث أن يضعها على زنزانتها وزنزانة صافى ناز كاظم فى محاولة لمنعهما من الاتصال.

كان مكسيم جوركى يحكى للكاتب العظيم تولستوى كيف عمل فى مرحلة من حياته بستانيا فى منزل جنرال روسى من جنرالات القيصر وفوجئ ذات يوم وهو يعمل فى الحديقة بزوجة الجنرال تضرب إحدى خادمات المنزل ضربا وحشيا فلم يتمالك جوركى نفسه وهجم على زوجة الجنرال وضربها على مؤخرتها وأنقذ الخادمة لكنه فصل من عمله.

وضحك تولستوى حتى دمعت عيناه وقال لجوركى: إن لك قلبا

حكيما!

بهذه الحكمة التى فى القلب كما هى فى العقل تشهد عشرات وعشرات من صفحات كتاب فريدة النقاش.

وهى تحكى قصة هذا الثلاثى من نساء مصر فى سجن القناطر فى مواجهة القضبان والمفتاح الثقيل الذى يدور كل عصر فى باب الزنزانة فيعلن عزلتهن النهائية لمدة أربع عشرة ساعة متواصلة من كل يوم.

اليس من حقنا ان نقول مع الشاعر

أجمل الأمهات التى عينها لا تنام

تظل تراقب نجما يحوم

على جثة فى الظلام.

لكن كتاب فريدة النقاش لا يقدم شهادة مناضلة مصرية فى السجن فحسب ولا هى تقدم مجرد الرسائل الشاعرية الرقيقة التى كانت تبعث بها إلى زوجها فى سجن طرة أو إلى ولديها جاسر ورشا فى الخارج والتى عبرت بها عن أزمتها العاطفية لابتعادها عنهما وما يمكن أن يسببه هذا البعد والاعتقال لهما من أزمات نفسية كما عبرت بها عن صمودها الإنسانى فى وجه الظلم والقضبان.

كلا.. لقد قدمت فريدة أيضاً فى هذا الكتاب شهادة فذة عن الحياة الحقيقية فى سجون مصر اليوم.. وفى سجن النساء بالقناطر بالذات عن تريزا ونظيمه المصدورتين عن السيدة «مزاج» تاجرة المخدرات ، عن ليلى المطوة التى احترفت الدعارة، عن مأساة موت صفية التى ضبطت تمارس الجنس مع مسجونة صغيرة، عن مهندسة الديكور (ل.ح) التى تزوجت الكويتى العجوز وعاشرت ابنه الشاب، وعن مشروع الراقصة المجهضة (صابحة) التى تذكرنا شخصيتها بزوربا اليونانى فى الرواية أو الفيلم، عن سلوى التى نشلت ساعة من إحدى تاجرات المخدرات وعندما علمت أن ساعة فريدة لا تعمل وقدمتها لها تحية ومودة.

فى هذا العالم الغريب الملىء بالسل والحرب والعراك الليلى والإيقاعات الشعبية من عويل ورقص وغناء وزغاريد وطقوس ذات ملامح افريقية تمشى تاجرات المخدرات مرفوعات الرأس محصنات بما يملكن سواء فى خارج السجن أو داخله، تحتقرن كل الجرائم الأخرى باستثناء السياسة لأنهن يعرفن من خبرتهن أن الانقسام الاجتماعى الموجود فى الخارج ممتد بشكل أكثر ضراوة إلى داخل السجن، وأن الفساد والرشوة اللذين بالخارج هما سلعة عادية ومقبولة بالداخل



أيضاً.. ومع هذا كله ثمة عديد من المواقف الإنسانية التى لم تخطئها عين فريدة الصحفية وقلب فريدة الفنانة والتى لا يتسع الحديث عنها فى مثل هذه العجالة.

وتعترف فريدة فى النهاية إن كتابها هذا يبدو بلا ختام: كتابا مفتوحا قابلا أبدا.. للزيادة وليس للنقصان.. فمتى يختم مثل هذا الكتاب إذن؟

تقول فريدة: «عندما ينجح المد الديمقراطى فى إسقاط القوانين الاستثنائية وإلغاء حالة الطوارئ وإغلاق المعتقلات السياسية إلى الأبد وصولا إلى اليوم الذى تنتزع فيه الجماهير الديمقراطية وتحرسها.

وإلى أن يأتى هذا اليوم ستظل مثل هذه الكتب مفتوحة بلا ختام وستظل عيوننا أيضاً مفتوحة بلا أحلام زائفة أو أوهام. ■

رسائل العذوبة والتسامح

شعبان يوسف

رفض الدكتور عبد العظيم أنيس أن يبقى بيننا، بعد رحيل رفيق عمره ومسيرته السياسية والفكرية محمود أمين العالم، فالعالم رحل صباح السبت ١٠ يناير الماضى، ولحقه أنيس فى صباح الخميس التالى أى ١٥ يناير، خمسة أيام فقط بين رحيلين مدويين ولافتين. وكان بينها رحيل آخر ذو طابع مأساوى وكارثى، رحيل ملطخ بالفساد والعفن وجميع أشكال بيروقراطية العابثين، أقصد رحيل الصديق والرفيق والأخ يوسف أبو رية، الكاتب الروائى، والذى اختطفته غربان سود ينعقون على أشجار جرداء عمياء، أشجار تقف فى خرابة كبيرة لا أعرف اسما ولا عنوانا لها.. سوى الفوضى الكاملة والنشطة .. إنه أسبوع الآلام الدامى، وتظلله أحداث أخرى تمور فى الجانب الآخر، الجانب الغربى أقصد غزة، حيث آلات الطغيان والبرابرة الجدد بكل أقدامهم الحديدية الثقيلة ، يدوسون على أعواد خضراء وأطفال عزل..

فى ظل كل هذا رحل العالم الرياضى، والمفكر ، والشاعر والناقد الدكتور عبد العظيم أنيس، وإذا كان رحيل عبد العظيم أنيس جاء وسط كل هذه الأحداث ، فحياته أيضا كانت حافلة ومزدحمة بانقلابات حادة وجادة، ومليئة بأشكال العطاء الوطنى والإنسانى الجم، منذ أن قبض عليه، وهو فى الثانية عشرة من عمره، وهو يسير فى مظاهرة احتجاجية عامى ١٩٣٦/٣٥وقضى ليلة فى السجن، كان البوليس قد تعرف عليه عندما سقطت كراريسه وكتبه المدرسية، وكان مكتوبا عليها اسمه، فذهبوا إلى

منزله، وأخذوه من بين أفراد أسرته، ليودعوه فى السجن، هذا السجن الذى صارت له قصص وحكايات أخرى، أكثر تأثيرا من هذه الليلة المبكرة، فقد قضى عاما ونصف العام من سبتمبر ١٩٤٩ حتى ١٠ يناير ١٩٥٠، وقد مرض فى آخر مدة السجن . ونقل إلى مستشفى الدمرداش، حتى افرج عنه عندما اجريت الانتخابات العامة، وعادت الحكومة الوفدية، فأفرجت عن جميع المعتقلين ، وعندما افرج عنه، عاد إلى جامعة الإسكندرية، التى وجد هناك تقاعسا فى قبوله، وتسليمه العمل، وساعتها ذهب أنيس إلى الدكتور طه حسين، الذى كان وزيرا للتعليم بالوزارة الوفدية، وكان موقف طه حسين رائعاً - كما وصفه أنيس فى ذكرياته - وأنصت باهتمام له ولعب دورا حاسما فى إعادته إلى عمله بالجامعة.

أما قصته الثالثة مع السجن ، فكانت مع مئات اليساريين عندما قبض عليه فى ١٩٥٩، وافرج عنه فى ابريل ١٩٦٤، وأظن أنه لم يفلت من المضايقات المقنعة والمستترة لأسباب سياسية أيضا. رغم أنه تولى مناصب كبيرة كان من بينها أنه ترأس هيئة الكتاب - شركة الكاتب العربى للطباعة والنشر - لمدة عام، من نوفمبر ١٩٦٧ حتى نوفمبر ١٩٦٨، فى ظل وزارة ثروت عكاشة، الذى اختاره لينتشل الشركة من عدة مآزق كبيرة ؛ وكانت علاقة أنيس بعكاشة قديمة، منذ الأربعينيات يقول عنها أنيس : «لقد عرفت ثروت عكاشة قبل الثورة. إذ كنا من شباب حى العباسية. ومع أنها كانت معرفة عابرة، إلا أنها تجددت بعد الثورة عندما كان هو الملحق العسكرى لمصر فى باريس.. ورغم أن علاقة أنيس بعكاشة كانت تتأطر بنوع من الصداقة ، ثم أكد هذه الصداقة العمل معا، فإنها قد شابتها بعض العكارة. عندما أصدر عكاشة مذكراته، وكتب أنيس مقالين عن هذه المذكرات مقرظا لها، ومثنيا عليه، وأيضا أخذ على المذكرات بعض المآخذ، التى تتعلق بخلط التواريخ كما يحدث مع الجميع، عندما تسقط الأحداث فى ضبابية الزمن، فما كان من أنيس إلا أنه صحح بعض هذه التواريخ، وذلك أغضب ثروت عكاشة، الذى ظن أن «أنيس» خضع لتحريض من شعراوى جمعة - الذى كانت تربطه صداقة مشينة بمحمود أمين العالم، كما يقول أنيس - وهذا ما أغضب عكاشة حتى إنه عاتب خالد محيى الدين حيث إنه وافق على نشر مقالى أنيس فى جريدة «الأهالى»، ولم يكن أنيس يدرك عمق الصراعات التى كانت تدور بين الوزراء خاصة بين عكاشة وزير الثقافة وشعراوى جمعة وزير الداخلية، ولكن «أنيس» أراد أن يوجه تحية لعكاشة، فكتب توضيحا بالغ الدقة عندما قامت الدكتورة سعاد الصباح بتكريم الدكتور ثروت عكاشة، وأظنه قد أزال لبسا كبيرا كان قد وقع بين

الصديقين القديمين.

وهذه الواقعة تدل على أن «أنيس» رغم كل ما يحيطه من خشونة، وشظف الأحداث، ورعونة الحكام تجاهه، إلا فإنه ينطوى على روح متسامحة، وعاشقة للحياة، وربما تصل إلى حد الطفولة، وهذا يبدو فى قصيدته التى يقول فيها:

(أنا اللى قلبى عصفورة مكسورة الجناحين

والبين مخريشها..

الدنيا ملهية وقلوب الناس مطوية

بليل الهم..

والدم يجرى فى جسمى

كنه ما بيجريش دم!

لكنها قامت وحامت فوق جبال المحبة)

وأيضا من يقرأ رسائله إلى عايدة ثابت، زوجته التى رحلت فى حادث مأساوى، إثر عقرة كلب ضال فى مطار القاهرة، سيكتشف هذا الطفل العاشق، الذى تحيطه جميع أشكال المهابة.. يقول فى إحدى رسائله:

«زوجتى الحبيبة:

لقد تحملت مشاق حياتى هنا فى صبر تؤازرنى من ذلك ثقتى فى حبك، وأنا على استعداذ لتحمل أضعاف هذا ما دمت أشعر أن قلبك قريب من قلبى، وأنفاسك قريبة من أنفاسى.. يا أجمل أغنية عرفتها حياتى.. أنت شجاعة يا حبيبتى، ولكل ليل صباح فلا تيأسى أبدا.

أبدا سأظل أحلم بك.. بالحصان الأبيض والزنابق البيضاء، حتى أضمك إلى صدرى ضمة لا فراق بعدها .. اقبلك وأضحك بقوة».

هذه الكلمات وغيرها، كان يكتبها أنيس، وهو بين أكف غليظة فى أوردى أبو زعبل، أو معتقل الواحات.. وكان يكتب الشعر والرسائل، يكتب لابنته «منى»

«بنتى ياللى انتى فى شوق لى

فى الليلة الطويلة

وأنت سهرانة وعليلة

لو بايدى كنت فوق

رأسك الحلوة الجميلة

افتكر لك فى الحكاية

اللى كنت تعشقيها

وابتديلك من البداية

وأنت تبقى ف النهاية»

هذا التسامح، وهذه الرقة، وتلك العذوبة، لم تنسحب على رسائله وقصائده فقط ، بل طبعت وهيمنت على حياته، وعلى علاقته برفاقه ، ومخالفيه فى الرأى، وهذا يتضح فى كتابه البديع «ذكريات من حياتى» وبالأخص عندما يتحدث عن لقاءاته مع طه حسين، وصداقته مع إحسان عبد القدوس. وعندما يرثى شقيقه إبراهيم أنيس - العالم اللغوى الكبير - وعندما يتذكر أيضا شقيقه محمد أنيس - أستاذ التاريخ ، وعندما يوصى زوجته وحبيبته عايدة ثابت، وهو فى المعقل ، ويوصيها خيرا بعائلته وبابنتيه منى ووفاء.. والذى يقرأ مقاله عن طه حسين، سيكتشف أن العداء المتوهم بينه وبين طه حسين. لم يكن قائماً كما كنا نظن. فيحكى أنيس عن احتفاء طه حسين به رغم اللقاء العاصف الذى حدث بينهما فى نادى القصة بعد معركتهما عندما كتب أنيس والعالم - مقالهما رداً عليه، ورد عليهما طه حسين بمقال شرس وساخر وهو «يونانى فلا يقرأ» وعندما دخل العقاد بمقال نشره فى أخبار اليوم نال من الاثنين بطريقة شنيعة، فردا عليه بمقال أكثر شراسة، عنوانه «عبقرية العقاد، غامزين ولا حزين له، لأنه كان يمدح الملك فاروق بقصائده، وعندما تقابل أنيس وطه حسين فى نادى القصة وفى حضور نجيب محفوظ ويوسف غراب ووداد سكاكينى وآخرين.. يحكى أنيس عن هذا اللقاء قائلاً: «وفى هذا الجو المحموم، وبعد صدور مقال «عبقرية العقاد» بيومين، ذهبت إلى نادى القصة، ولم أكن أدرى أننى فى طريقى إلى لقاء عاصف مع طه حسين! أحسست منذ أول وهلة وأنا أسلم عليه بأنه غاضب . ولم أكد أجلس على أحد مقاعد الغرفة حتى بادرنى قائلاً: «أنا زعلان منك .. كيف تسمح لقلمك أنت وصديقك أن يشتد فى الهجوم على الأستاذ العقاد إلى هذا الحد».. وقالت السيدة وداد سكاكينى: «البادى أظلم يا باشا».. وقال نجيب محفوظ جملة أو جملتين فى محاولة لتهدئة غضب طه حسين».

ويستطرد أنيس فى وصف هذا اللقاء الذى لم يقتنع طه حسين بوجهة نظره ، وظلت العلاقة جامدة بينهما، رغم ما يكنه أنيس من تقدير عال وكبير لأستاذه طه حسين.

وفى كتابيه «رسائل الحب والحزن والثورة، وذكريات من حياتى، يكشف عن هذا المعدن الأصيل للإنسان وللرجل الذى قاد مظاهرة فى لندن ضد العدوان الثلاثى، رغم تحذير السفارة المصرية له بألا يفعل ذلك، وعاد فورا من



هناك، وكان قد فقد مقعده كمدرس فى الجامعة ويعمل صحفياً في جريدة «المساء» كمحرر للشئون العربية، ويترجم عددا من الدراسات والكتب، أهمها كتاب «بنوك وباشاوات» و«دافيدس لاندز».. وينجز عددا كبيرا من المقالات واللقاءات والبحوث، لم تجمع فى كتاب حتى الآن. ولم يعتن أحد بإعداد ببلوجرافيا تضمهما . أتمنى أن تقوم مؤسسة بعمل ذلك.

فعبد العظيم أنيس أحد أعمدة جيل الأربعينيات العظيم، هذا الجيل الذى قاد وعلم وربى، ودخل المعتقلات، وظل واقفا حتى نهايات العمر.. ورغم ما نرى ونختلف .. فالخلافات لا تفسد تقديرنا ومحبتنا ..رحل العاشق والمعلم، رحل الرفيق الذى كانوا لقبوه بـ «سيد» .. وهو سيد فعلا ■

أدب ونقد

رحيل آسر لحياة مدهشة

د.محجوب الحارث
(السودان)

أى والله!! شهقت غابة مانجو ناضجة،، وصاحت يا رفيقى خض أسراب العصافير حجر!!

أدب ونقد

والحجر كان رحيل المفكر الكبير محمود أمين العالم (الرفيق فريد) وفى ذات الأسبوع يلحق به توأمه وزميله فى النضال الذى امتد لنصف قرن عالم الرياضيات الفذ أنيس وكأنها ضحكة أخرى من ضحكات القدر بعدما اغتالت الأيدى الأثمة رفاقهم فى النضال فرج الله الحلو (لبنان) وعبد الخالق محجوب (السودان) وعبد الفتاح إسماعيل (اليمن) وآخرين من المفكرين والقادة الثوريين وكلهم من رموز الفكر التقدمى الشامل.. وإن جئنا إلى أرض الكنانة من بلادنا الحبيبة أرض السودان الحار الجاف متر امى الأطراف قبل حين فقد وقع علينا الحجر - أو قل يا قارئى العزيز - الخبر مهولا لم نصدقه بل وحتى الآن لم نفق من الصدمة العنيفة برحيل الصديقين الكبيرين وفى زمان واحد كأن القدر لا يريد لزمالة فكرية امتدت وترعرعت بكل ما أدخر الزمان من الغصون لا يريد لها أن تتوقف.. عاشا توأمين فى الكفاح والمنافى والتشريد والعذاب وتجلت فى رحلة واحدة كل المعانى الظامئات إلى غد الطبقة العاملة المشرق وطموحات المستنيرين لمجتمع عربى معاف من استغلال الرأسماليات الطفيلية ولحياة جديدة تحتضن الجياع والمهمشين، واللافت أن حياتهما تكاد تكون متطابقة

ولعلها تشبه وإلى حد بعيد أن قلنا فى عطائهما الفكرى المتنوع لمحة أو قل لقطة من لمحات أو لقطات السيزاما إذ تميزا بقدرات غير عادية على تناول بالسهل الممتنع كل اتجاهات رياح الفكر واختار فى زمان واحد الانضمام إلى الطريق الصعب فى بناء صرح الاشتراكية الوضاءة فى كل أنحاء الوطن.. كانا ابناء مصر الحقيقيين ولكن بعروبة متقدمة تحمل الفكر المستنير دفاعا عن الطبقة الكادحة والمثقفين الوطنيين ولقد كان من حظى أن التقيهما كلا على حدة وفى مناسبتين مختلفتين.

لقاء الرفيق سيد

أبان حرب السويس أو ما عرف بالعدوان الثلاثى بعدما أمم الزعيم العربى الكبير عبد الناصر قناة السويس فقامت الدولة الاستعمارية الثلاث (انجلترا ، فرنسا، إسرائيل) بشن حربهم على الشقيقة الكبرى مصر.. وكنا حينها (ديسمبر ١٩٥٦) طلابا فى الصف الأول بجامعة الخرطوم حينما حل ضيفا علينا الدكتور أنيس بعدما قاد مظاهرة حاشدة فى الطرف الاغر فى لندن تنديدا بالعدوان الثلاثى.. وكان لقاؤنا معه فى دار اتحاد طلاب جامعة الخرطوم وكان فى حديثه لنا وفى محاضرة تاريخية مدى جرأته السياسية واقدامه.. فأنا مازلت املا خاطرى (وقد عبرت السنون اربعين عاما) بترديده (مصر حتحارب .. شعبنا لا يستسلم .. سنهزم الغزاة الاستعماريين!!) وقد دفع سيد فى محاضرته مئات السودانيين للانخراط فى التجنيد متطوعين للقتال مع شعبنا الحبيب فى شمال الوادي..

لقاء الرفيق فريد

وبذات السياق كان لقائى مع الراحل الكبير محمود أمين العالم عبر شقيقى الراحل الرسام السودانى الماركسى جناح الحارث قد كان يحكى لنا كيف انهما كانا معاً يقومان بكتابة شعارات المقاومة فى شوارع قاهرة المعز أيام العدوان الثلاثى ولقد تعرفنا على مقدراته الفكرية من أول يوم وقع فى أبصارنا واستقر فى بصيرتنا كتابهما مع رفيق حياته انيس (فى الثقافة المصرية) وكيف انهما قدما منهج الواقعية الاشتراكية فى الآداب والفنون بديلا تاريخيا لما سبقه من فكر رأسمالى لا ارادوى مثل ما كان يبشر به الوجوديون (سارتر وتلميذه ولعله إلى يومنا هذا انيس منصور) أو مبدا الفن للفن ليوسف السباعى واحسان عبد القدوس وغيرهما.. واللافت أننى كنت فى القاهرة ابان احتفال التجمع بعيد ميلاده الخامس والثمانين

واعتقد أن ذلك كان العام ٢٠٠٧ ولقد قدمت مساهمة فى الحفل بالتنويه عن أهمية الكفاح المشترك وأهمية الدور البارز الذى لعبه الفكر الكبير فى ترسيخ ودعم الفكر الاشتراكى ونشره.. وفى الحقيقة وبالرغم من تحولاته فى محاور الفكر من المادية الجدلية التى تمرد عليها ذات يوم حين وصفها بأنها رؤية مفروضة على التاريخ (فى مضمونها!!) وليست رؤية مستمدة من دراسة موضوعية عينية للتاريخ وأن لا يفسح المجال ونحن نحمل تعازى القوى المستنيرة فى السودان إلى قوى التجمع المصرى وروافده فأننا نجد فى تحليله لما حدث فى الاتحاد السوفيتى والمنظومة الاشتراكية بأسرها من تفكك أثر ما عرف بإعادة الهيكلة (بريسترويكا) والمكاشفة (جلاسنوست) حلاً لأحد مسببات تلك الحالة (التفكك) التى أعطت المعسكر الرأسمالى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية زعامة العالم كقطب أحادى .

.. فقد قال العالم إن الاشتراكية هناك (أى فى روسيا وغيرها من بلدان المعسكر الاشتراكى بولندا وبلغاريا وغيرها تحولت إلى نسق مطلق ومفروض بشكل علوى على كل فئات المجتمع مما أفضى إلى أن تتحول الماركسية - ذاتها - إلى نظرية غير تاريخية بيد أننى لا أشك أطلاقا فى أن الراحل العظيم كان يدرك تماما أن النظرية التاريخية ماركسية فى أصلها وفى جذورها.. وقد تناول مفكرنا الراحل مفاهيم وقضايا اشكاليات الوعى والوعى الزائف إلى جانب مقارنات نظرية وتطبيقية فى قضايا الثورة والثقافة (عالمية أو مصرية أو عربية.. إلخ) ولم تغب عنه طوال مشاويره بوصلة الماركسية هاديا ومرشدا ولقد أهدانى بخط يديه كتابه ,مواقف من التراث، وهو إحدى مساهماته التى أثرت فى بناء صرح الاشتراكية العالى لمصر ولكل العرب..

وإذ نحن نودعه إلى مثواه الأخير جنبا إلى جنب مع رفيق دربه الدكتور / أنيس فماذا من الممكن قوله عن من ساعد فى فتح عقولنا وقلوبنا ووجداننا.. انهما فى مقام والدى والذى حين رحل عن هذه الفانية قلت فى وداعه وفى حضرة من جاءوا للعزاء:

ماذا أقول عن أبى وهو لم يمت من قبل؟

فإذن ماذا نقول عنهما وهما رواد الحركة الماركسية فى الوطن العربى.. ماذا نقول عنهما وأخيرا.. لا نملك إلا وأن نحنى هاماتنا اجلالا وتقديراً لكما يا رفاق الدرب الطويل، وسنقول لمن يسألنا من انتم؟ سنقول لهم. لقد عشنا ونما وعينا وفكرنا فى عصر العالم وأنيس ولقد عشنا عصرا قد لا يتكرر.. عصر الشرقاوى والخميسى وعبد الخالق محجوب وعلى الراعى و.. و.. وهم كثر.. وماذا يمكن أن نقول لهذا الزمان الكنود فقد كان يوم رحيلهما - مثل يوم مات أبى - يوماً



رماديا اجرد ولقد كنا نغنى معا للحرية والاشتراكية اللتين تولدان الفرحة للناس.. فماذا نقول للموت وفيه رقاد طويل مقفر وعتمة وكآبة ولا صوت.. وما أعمق هذا الاحساس!! و.. وداعاً لكما معا يا من كنتما ينبوعا لكل ما هو رائع وما تركتماه من أثر يكفل لكما حياة ثانية .. ولقد احسست وأنا أكتب ما كتبت اليوم برحمة وطمأنينة .. وبسلام.. بل ومازلت أملا خاطرى فى كفيكما اللتينى هزتا يدى - بعد الموعد - كانتا تسيلان من التفاؤل والأمل .. فطوال مشوار حياتهما المشتركة تميزان بروح شفيفة وسريرة نقية ولم يتهادنا قط مع النظم القمعية والاستبدادية إذ كانا دائمى الحضور فى ساحة النضال الشعبى وفى نبض الجماهير .. وداعا يا رفاق الحياة!

وليرحمكما الله!

كم طال دوحك

من قزم يطاوله

فما قصرت

ولم يكبر .. ولم يطل!

المحمودُ والأمينُ والعالمُ

حامد الحلبى

(دمشق)

مساء يوم الجمعة ٢٠٠٩/١/٩ ، عندما اتصلت به من دمشق للاطمئنان عن صحته ، ولم أكن أعلم انها ستكون مكالمتى الأخيرة معه، ولعلها كانت الأخيرة فى حياته أيضاً !! حيث توفى فى صباح يوم السبت فى الساعة السابعة صباحاً ، بعد حوالى عشر ساعات على تلك المكالمة ... التى - للأسف الشديد ودون أن أدرى - كانت مكالمته الوداعية . أهى المصادفة العجيبة !! وهنا أتذكر حديثه الممتع والعميق حول (فلسفة المصادفة) الذى سمعته منه فى القاهرة- ونحن نتحدث فى جلسة طويلة ممتعة فى كافيتريا "المجلس الأعلى للثقافة" - قبل سنوات عديدة ،وكان حديثه من أعمق ما عرفته عن هذه الفلسفة ... فيا أستاذنا الفقيد (العالم) هل لك ان تشرح لى الآن هذه (المصادفة) !! وأنت الذى لم تكن تخطر على بالك اطلاقا تلك(المصادفة) .. وكنت مقبلاً على الحياة ومتفائلاً- كعادتك - .. ولا أنسى كلماتك عند سؤالى عن صحتك ، اذ قلت "لا ... أنا أتقدم وأقرأ الصحف وبعض الكتب ، وبدأت أتحرك وأشاغب " !!

لم يزل فى سمعى صوته المتدفق حيوية ونشاطاً عبر الهاتف

فيا استاذنا الكبير ... لطالما كنت تردد قولك المشهور (شاغبوا تصحوا) !! .. تلك المشاغبة التى تفضح الخطأ، وتثور على الظلم، وتتحمل

متعل الحرية ، والحب العميق للوطن والناس ، ومستقبلهم المشرق .. كم نحن بحاجة الى هؤلاء(المشاغين) ...

لقد عرفت محمود أمين العالم من خلال كتاباته فى الصحف والمجلات ، وخاصة (المصرية) ، التى كانت تصل الى دمشق فى أواسط الستينات وأوائل السبعينيات من القرن الماضى ، عندما بدأنا - فى بداية شبابنا - نتلمس طريقنا الى حمل الهم الوطنى والقومى العام ، ونسعى للتقدم والعدالة الاجتماعية ... وبعد ذلك بسنوات قرأت كتابه (الانسان موقف) وكان له تأثير كبير على بلورة أفكارى ، وفى التركيز على ما هو جوهرى وأساسى من الأمور ، بعد ان أصبت بهزة مزلزلة بسبب هزيمة عام ١٩٦٧ .. وبقينا بعد ذلك نتابع انتاجه الفكرى ومواقفه النضالية الصلبة ، وخاصة كتاباته فى مجلة (اليسار العربى) وغيرها من الدوريات ..

وكم كانت سعادتى كبيرة أن التقيته فى القاهرة قبل أكثر من عشر سنوات ، و ذهبت لأحضر أمسية شعرية فى دار الأوبرا المصرية (المسرح الصغير) . وقبل موعد الأمسية ، رأيته وسلمت عليه وعرّفته بنفسى ، وذكرت له متابعتى لانتاجه وكتاباته ، وما قرأت منها ، وتأثرى الكبير بما كتب ، فرحب بى كثيراً ، ودخلنا سوية الى الأمسية ، وأصر على أن أجلس معه فى الصف الأول من المقاعد المخصص لكبار الكتاب والأدباء و المدعويين ، فاعتذرت .. وبعد اصرار منى تركنى أجلس وراءه فى الصف الثانى ... وبعد الأمسية ، تابعنا حديثنا وأصر ان نتواصل دائماً ..

بقيت بعدها -حتى خريف ٢٠٠٦- أذهب كل عام الى القاهرة ، فى عمل يتعلق بالبرامج التعليمية والثقافية فى التلفزيون . وكنت حريصاً فى كل مرة ان اتصل به ونتواعد على اللقاء ، وكم كان كريماً فى اعطائى الساعات الثمينة من وقته ،وحديثه، وفكره العميق المبدع ، وديمقراطيته فى الحوار ، وتقبله للرأى الآخر .

لا يغيب عن البال تواضعه العظيم والتلقائى ، تواضع المفكر الكبير ذى الأحساس الديمقراطى الانسانى العميق ، ولا أنسى جوابه المتكرر -عندما كنت أقول له : انى تعلمت كثيرا من كتاباتك ، والأكثر ، من لقاءاتك وسيرة حياتك ، فكان يجيب : (آنا أتعلم من الشباب دائماً) .

عندما علم اننى من الجولان المحتل ، وأهلى ما زالوا هناك مع بقية المواطنين العرب السوريين الصامدين فيه ، يقاومون الاحتلال بكل امكانياتهم ، كان يستزيدنى فى آن أحدثه بالتفصيل عن الجولان وبقية الأراضى العربية المحتلة . وكم كان صادقاً وكبيراً فى حمله هم التحرر ، وبناء القوة العربية العصرية ،

القادرة على حماية الأوطان بالديمقراطية ، والعلم ، والنظرة المستقبلية التقدمية .

ومن الأشياء المميزة فيه تفاؤله الكبير ، وإيمانه الثابت بقدرة الناس على التغيير ،و روحه المرحة - رغم كل الظروف القاسية التى مر بها- ... و عقله المنفتح الذى يتعلم ويستفيد ولو حتى من أبسط الناس ..و لا أنسى حادثة ذات معنىً رواها لى .. هى انه عندما كان فى السجن ، وكانوا يأخذونهم للعمل فى تكسير الأحجار وجعلها على شكل قطع صغيرة (زلط) ، فكان يضرب قطعة من الزلط بالمطرقة ليكسرها فلم تنكسر معه - لأن لا خبرة له فى هذا المجال- فجاء الحارس الذى كان يراقبه - وهو متعاطف معه- وأخذ المطرقة وضرب الحجر من زاوية ثانية .. فكسره ... وقال له (يا أستاذ : كل حاجة وليها عشر أبوب) ... وهنا قال : لقد تعلمت هذه الحكمة من ذلك الحارس .. (بصرف النظر عن الظرف الكارثى ، والصورة الفاجعة للتعامل مع المفكرين، بسجنهم واجبارهم على الأشغال الشاقة ضميراً ووجداناً ، قبل أن تكون شاقة عضلياً ..)

ـــ ولا أنسى أبداً ،العمق الحضارى الهائل فى حديثه وشخصيته، فقد سألنى مرة : (عملت ايه امبارح) فقلت له : زرت منطقة الاهرامات ، وأمضيت معظم النهار هناك ، ورغم اننى زرتها مرات عديدة، ففى كل مرة أجد فيها متعة جديدة ... فقال : وانا أيضاً أجد متعة كبيرة كلما زرتها رغم اننى(طول عمرى بازورها ، و لو قلت لى كنت رحت معاك)... أى سعادة ان يكون صديقك شخص بهذا العمق الانسانى .

ـــ يطول الحديث عن هذه الشخصية الانسانية الكبيرة ، وهنالك الكثير ممن كتبوا -بشكل واف- عنه عند وفاته وفى حياته .. ولا سيما العدد المميز والهام من مجلة (أدب ونقد) الصادر فى ابريل ٢٠٠٧ ، والذى ضم محورا شاملاً ممتازاً عن (محمود أمين العالم : الفتى فى الخامسة والثمانين) ... ولكنى هنا أقدم إطلالة شخصيته على محيط واسع .

ما زالت كلماته الأخيرة فى أذنى وقلبى عندما سألنى : ماذا تعمل هذه الأيام ؟ فأجبته أننى اشتغل على بعض الأبحاث والترجمات ، فقال " أرسل لى ما تنتجه فأنه يسعدنى أن أقرأ انتاجك .. وأن تزورنى فى البيت اذا جئت الى القاهرة . " فقلت له : يشرفنى ذلك وسأزورك بالتأكيد ...

والآن كم هى غصة كبيرة أنك /أيها الكبير/ لم تعد قادراً أن تقرأ لى أو أن أزورك ... لكن العزاء اننى سأبقى أزورك فى كتاباتك وتراثك الغنى الباقى أبداً .

ومن بعض العزاء الشخصى أيضاً ، ما قالته لى ممرضته السيدة (منار) على الهاتف ،عندما اتصلتُ معزياً بعد أن علمتُ بالوفاة ،



قالت: (انه كان سعيداً جداً بمكالمتك الأخيرة له ،وكان يكلمنى عنها وعنك وهو مبسوط)
..... وآنا مرتاح فعلا اننى أدخلت بعض السرور اليه فى ساعاته الأخيرة ....

إن بعض الحزن يأتى كالمطر العاصف ، يضرب بسرعة ويذهب بسرعة .. وبعضه كالمطر الهادئ المستمر ، يهطل على الأرض ، وتتشربه ببطء ، لكن بعمق .. ويغذى التربة وينتج نباتاً وثمراً يانعا ، وهذا هو حزننا على مناضل ومبدع كبير من حجم (محمود أمين العالم)، كان فى مقدمة من أناروا العقول ، ورفعوا قيمة الانسان، فى مصر والبلاد العربية كلها ، وهو من الشخصيات التى ساهمت فى جعل العالم كله اكثر جمالاً ، ولهذا سيبقى... شعلة لا تنطفئ ■

أدب ونقد

القـــــــــاهـرة ١٩٦٦

هانى الحورانى

(الأردن)

فى مثل هذه الأيام، من مطلع عام ١٩٦٦، قضيت فى القاهرة اجازة منتصف العام الدراسى الأول وأنا على مقاعد كلية العلوم السياسية والادارية فى الجامعة الأردنية.

الذى أعاد تلك الرحلة إلى الذاكرة، هو وفاة محمود أمين العالم، المفكر المصرى اليسارى المعروف، الذى غادرنا فى كانون الثانى/ يناير الفائت.

تذكرت تلك الرحلة والاجازة الحافلة، لأنى كنت أجريت حوارات صحفية مع محمود أمين العالم، ونجيب محفوظ ومجموعة أخرى من الرموز الأدبية والفنية المصرية. وهى حوارات لم يطلبها منى أحد، لكنها كانت محاولة منى لإثبات الذات، و "للتباهى" على الأرجح، بمقابلة هذه الأسماء الكبيرة خاصة وانى كنت فى بداية محاولاتى الكتابية فى الصحافة الأردنية والعربية. كانت زيارتى هذه للقاهرة الزيارة الأولى لها، فى زمن كنا نؤمن بحق أن مصر هى "أم الدنيا"، وكانت هى تتصرف حينها باعتبارها "أم الدنيا" فعلاً، ولم نكن قد شهدنا بعد الانكسار العظيم الذى رافق هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧، وزعزع ايماننا بالنظام الناصرى، وشكل بداية الانحسار للناصرية والقومية كفكر سياسى مهيمن على الساحة العربية.

خلال تلك الاجازة القصيرة، لكن المفصلية، أجريت أولى المقابلات مع الأديب الكبير نجيب محفوظ، حيث تركزت أسئلتى على آخر رواياته

التى كانت قد صدرت فى عام ١٩٦٥، وأثارت نقاشاً حاداً حولها، أعنى بها رواية "ثرثرة فوق النيل"، التى أرهصت بأزمة مصر السياسية والفكرية، ثم جاءت هزيمة حزيران ١٩٦٧ لتقيم البرهان عليها بصورة مفجعة. وما أذكره حينها، أننى قمت بسلسلة من المناورات للحصول على رقم الهاتف المباشر للأديب نجيب محفوظ، لكننى وقعت على رقم هاتف الدكتور (الطبيب) نجيب محفوظ قبل أن أصل إلى رقم منزل نجيب محفوظ الروائى. وحين تحدثت اليه، ادّعيت انى أمثل جريدة "الحرية" الأسبوعية اللبنانية، التى كانت تنطق باسم حركة القوميين العرب، وهكذا حصلت على موعد لإجراء المقابلة معه.

فى تلك المقابلة اصطحبت معى أخى، الذى كان يدرس فى القاهرة، حيث تقمص دور المصور الصحفى. وعندما صعدت بالمصعد إلى مكتبه فى برج التلفزيون، تلقيت كناصرى شاب قادم من الأردن، أول صدمة سياسية حين تقدم منى "مخبر" قبل أن أطرق باب الأديب الكبير، وأخذ يسألنى عن هويتى والصحيفة التى أمثلها ولماذا أريد أن اقابل نجيب محفوظ. ولم يخطر ببالى، حينها، أن رجلاً بقامة محفوظ الأدبية، يجرى التحرى عمن يزوره وأسباب الزيارة. وبعد أن دلفت إلى مكتب الأديب الكبير كان أول أسئلته: كيف حصلت على رقم هاتف المنزل؟ ومن العجيب انه لم يسألنى عن عمرى، فقد شرع فى الاجابة على أسئلتى باقتضاب، وعندما انتهينا التقط أخى صوراً لنجيب محفوظ ولى فى وضعية "الحوار الجاد"! لا، بل طلبت إلى الأديب الكبير تقليب مجلة "الحرية" التى كانت تصدر حينها بحجم "التابلويد"، متظاهراً بقراءتها، وقد تجاوب مع طلبى مما أتاح لنا أخذ المزيد من الصور. ولست بحاجة إلى الاشارة الى ان نجيب محفوظ لم يكن يعرف عن هذه المجلة من قبل، وأن تلك المناسبة ربما كانت الوحيدة التى تصفح فيها نجيب محفوظ "الحرية" الأسبوعية اللبنانية.

كان موعدى الثانى مع المفكر محمود أمين العالم فى مقهى "جروبى" الشهير على أحد نواصى ميدان طلعت حرب فى وسط القاهرة، لكنى حين دخلت اليه لم يكن العالم قد وصل بعد، وأثناء انتظارى له وجدت رجلاً نوبياً طويل القامة، يواصل التحديق بى بفضول، وافترضت انه "مخبر"، يرصد حركة المترددين على المقهى، فبادلت نظرته الفضولية بنظرات تقدح شرراً وجفاء. لكنه لم يلبث أن تقدم نحوى بتهذيب بالغ ليعرّفنى بنفسه، وللمفاجأة فقد تبين انه محمد خليل قاسم، كاتب رواية "الشمندورة"، وهى أول رواية نوبية تصدر فى مصر، وكانت تنشر على حلقات فى اسبوعية "صباح الخير" الصادرة عن دار روز اليوسف. وقد

أوفده محمود أمين العالم ليكون بانتظارى فى المقهى ريثما ينهى عملاً طارئاً حال دون وصوله فى الموعد.

ليتنى كنت أعلم أن محمد خليل قاسم الذى احتفت مجلة "صباح الخير" حينها بروايته "الشمندورة" ونشرتها على حلقات، وقد زينت حلقاتها برسوم أهم فنانيها، لن تطول به الحياة، إذ توفى فى أيار/ مايو ١٩٦٨، أى بعد ذلك اللقاء العابر معه فى مقهى "جروبى" بعامين ونيف، عن عمر لا يتعدى الخامسة والأربعين بكثير!

وكيف لى أن أعلم، وأنا أحدج محمد خليل قاسم بنظرات عدائية، ظناً منى انه مخبر، فى لقائى العابر معه فى مقهى "جروبى" أنه، مثل محمود أمين العالم، عاش مناضلاً متعلقاً بمثله ومبادئه، فقد انضم إلى جماعة الاخوان المسلمين فى اواسط الأربعينات لكنه غادرها سريعاً إلى نقيضها، أى الحركة الشيوعية المصرية، لينتهى عام ١٩٤٦ إلى السجن. وخلال تواجده فى المعتقلات السياسية، التى ما ان يغادرها حتى يعود اليها، لم يكتف بمحو أمية المساجين وإنما أمية السجانين أيضاً، ولقد ظل هكذا حتى الإفراج عنه آخر مرة عام ١٩٦٣.

استسمح القارئ بأن أضيف بضع سطور عن محمد خليل قاسم الذى عرفته فعلاً بعد وفاته، ولقائى العابر معه.

فقد روى محمد خليل قاسم فى "الشمندورة" قصة قريته "قتة"، من أراضى النوبة التى أغرقتها تعلية سد اسوان الثانية عام ١٩٣٣، وتذكرنا "الشمندورة" بأعمال الفنان العراقى نورى الراوى، الذى ظل "يروى" بالألوان قصة بلدته "راوة" فى شمال العراق التى غمرتها مياه الفرات، بعد بناء سد عليه، وتحولت بعدها إلى أسطورة تعيش فى ذاكرة الفنان ووجدانه، يتخيل مبانيها وأشجارها وهى تحت الماء، مجسداً هذه الصورة الخيالية فى الكثير من لوحاته.

كتب محمد خليل قاسم رواية "الشمندورة" سراً فى معتقل الواحات، وبقلم "كوبيا" على ورق بدائى الصنع، قبل أن تنشر وتوضع فى مقام أهم الأعمال الروائية المصرية، ولتقارن مع رواية "الأرض" لعبد الرحمن الشرقاوى. وفضلاً عن أعماله الأدبية فقد لعب قاسم دوره فى اكتشاف ورعاية جيل من الأدباء والفنانين النوبيين.

وبالعودة إلى محمود أمين العالم الذى دخل مقهى جروبى بعد انتظار قليل منى، ليفاجأ بأن القادم من الأردن لم يكن رفيقاً مخضرماً من الحزب الشيوعى الأردنى كما توقع، ولم يكن يحمل فى جعبته رسالة سرية "توصى بحاملها"، أو تنقل اليه أخبار الحزب الشقيق، أو تحيات قادته. فقد وجد فتى يافعاً،

ضئيل الحجم، يصارحه بأنه قومى ناصرى، بدأ للتو بالتعرف على الماركسية عن طريق الكتب المهربة، والمجلات اليسارية التى بدأت الرقابة على المطبوعات تسمح بدخولها فى فترات الانفراج القصيرة التى عرفها الأردن فى الستينات.

ومع الوقت، بدأ العالم بابتسامته الدائمة وسعة أفقه يستوعب أن موعده المهم مع الزائر الأردنى ليس إلا لقاء صحفيا مع شاب معجب بكتاباته المعمقة عن أعمال نجيب محفوظ الروائية المنشورة فى مجلة "الكاتب" الشهرية اليسارية، أو مقالاته الأسبوعية التى باشر بنشرها فى مجلة "المصور"، بعيد خروجه من المعتقلات السياسية، وكان آخر مراحلها ما بين ١٩٥٩ و ١٩٦٤.

سلّمت محمود أمين العالم حفنة من الأسئلة، لأعود بعد أيام لألتقى به فى مدخل أحد مسارح القاهرة، وقد أجاب على أسئلتى باستفاضة أسعدتنى، أولاً، لأنها أشعرتنى بجدية تعامله مع محاولاتى الصحفية المبكرة، التى لا ريب عندى انها لم تخل من سذاجة، وثانياً، لأنه زودنى "بصيد ثمين" كثير الصفحات، لا بد أن يثير اهتمام الناشر والقارئ بغنى محتواه.

لم أعد أذكر ماذا سألت محمود أمين العالم وماذا أجابنى. لكنى لن أنسى أبداً سخاءه وجديته فى تعامله مع أسئلتى ... ولليوم أشعر بالامتنان لدماثته واستجابته بالرد المستفيض على تلك الأسئلة. وكان على أن انتظر نحو ثلاثين عاماً لاحقة لأزور القاهرة للمرة الثانية، ولأراه مجدداً بين الحين والآخر خلال مؤتمرات ومناسبات مختلفة منذ عام ١٩٩٦.

ليس من السهل اختزال مسيرة محمود أمين العالم ومنجزاته فى مجال الثقافة والفكر، والتى استهلها بكتابه الشهير "فى الثقافة الوطنية، الذى ألفه مع صديق عمره د. عبد العظيم أنيس. فهى من الغنى والتنوع بما يحول دون تسجيلها فى عجالة كهذه. ولعلى أتفق مع د. فيصل دراج حين قال أن أعظم أعماله هى حياته ذاتها، بكل ما حفلت به من تجارب وأدوار. ولعلى أضيف أن روحه المتفائلة وانفتاحه كانت أبرز سماته الشخصية. وربما يفسر ذلك أن نجد المرشد العام لجماعة الأخوان المسلمين، مهدى عاكف، فى مقدمة المشيعين لجثمان الماركسى والشيوعى محمود أمين العالم.

لم أكتف فى اجازاتى القصيرة فى القاهرة بمقابلة نجيب محفوظ ومحمود أمين العالم، ولا بد أن طموحى الجامح لم تعد تحده حدود، وهكذا توجهت إلى دار روز اليوسف، حيث سعيت لمقابلة الشاعر صلاح عبد الصبور لأكتشف أنه فى رحلة أدبية إلى الهند. وهكذا تحولت إلى الشاعر عبد المعطى

حجازى الذى كان يليه فى النجومية. لكنه كان أقل صبراً معى، وهكذا لم يتردد فى إعادة أسئلتى إلى، باعتبارها محاولات ساذجة لفهم الشعر الحديث، ناصحاً إياى أن أقرأ أكثر قبل أن أعود اليه!

لكن هذا لم يمنعنى من المحاولة مع رسام الكاريكاتير المعروف جورج البهجورى الذى اشتهر بخطوطه الحرة والمختزلة فى الرسم الكاريكاتورى، ونجحت فى إجراء حديث معه. ولم يلبث أن غادر البهجورى مصر وهجر الرسم الكاريكاتورى ليعيش كفنان تشكيلى فى باريس فى حياة بوهيمية امتدت به لسنوات طويلة قبل أن يعود ثانية للقاهرة. وفى الوقت نفسه أجريت مقابلة مع د. مصطفى محمود، الطبيب الذى تحول نحو الصحافة والتأليف، وكان يعمل فى دار روز اليوسف، لكن هذا الكاتب الذى بدأ يسارياً يجاهر بعلمانيته ويتحدى المعتقدات الدينية الراسخة شهد، منذ أواسط الستينات، تحولاً مفاجئاً قاده إلى التحول إلى "داعية اسلامية" ذائع الصيت، وإلى وجه تلفزيون شهير بنى معه ثروة طائلة.

بالتوازى مع هذه المقابلات اغتنمت فرصة تلك الاجازة القصيرة لمشاهدة أبرز إبداعات المسرح المصرى حينذاك، فشاهدت أعمالاً ليوسف إدريس ونعمان عاشور، وحتى لعميد المسرح المصرى، يوسف "بيه" وهبى الذى كان يعرض مقتطفات من مسرحياته المختلفة فى أحد مسارح الاسكندرية، بل إنى شاهدت عملاً مسرحياً لأحمد سعيد مدير إذاعة "صوت العرب"، صوت الناصرية المجلجل، الذى كان يتوعد اسرائيل والرجعية العربية "بالثبور وعظائم الأمور"، قبل أن يأفل نجمه، مباشرة بعيد هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

كان يفترض أن أنشر المقابلات التى أجريتها مع نجيب محفوظ ومحمود أمين العالم وجورج البهجورى ومصطفى محمود فى صحيفة "الحرية" الأسبوعية التى كانت تمثل حركة القوميين العرب، وتصدر فى بيروت. لكنى ما أن عدت من هذه الاجازة الحافلة حتى فوجئت بوقوع حملة ملاحقات شاملة للأحزاب السياسية العاملة تحت الأرض (وكنت منتسباً لواحد منها) تزامنت مع الاجازة القصيرة التى قضيتها فى القاهرة. وقد شغلنى ذلك عن مهمة تحرير المقابلات وإعدادها للنشر.

وعلى أثر الاعتداءات الاسرائيلية على قرية السموع التى وقعت فى نفس العام، وجدت نفسى ملاحقاً بعد تنظيم مظاهرات احتجاجية فى الجامعة الأردنية. ومع ذلك فقد بدأت بإعداد المقابلات للنشر، وأذكر أنى أرسلت مقابلتى مع نجيب محفوظ إلى الشاعر عبد الرحيم عمر الذى كان يرأس تحرير مجلة



"أفكار" حينذاك. وكادت المقابلة تنشر، بعد أن وافق عليها، لكنه لم يلبث أن اعتقل مع العديدين الذين شملتهم حملة الاعتقالات الثانية لعام ١٩٦٦. وهكذا انتظرت حصيلة مقابلاتى مع نجيب محفوظ ومحمود أمين العالم والآخرين إلى ما بعد حرب ١٩٦٧، وبدلاً من نشرها فى "الحرية" الأسبوعية، قمت بإرسالها إلى الأديب المعروف غسان كنفانى الذى قام بنشرها تباعاً فى الملحق الأسبوعى لجريدة "الأنوار" وهو ملحق حافل بالمقالات السياسية والفكرية والثقافية، كان يرأس تحريره حينذاك ■

أدب ونقد

الفيلسوف مناضلاً

سمير كرم

الحزن أقدر من غيره من المشاعر الإنسانية على أن يخرجنا عن عاداتنا الذهنية الفكرية.

والحزن على فراق «الأستاذ» محمود أمين العالم يخرجني عن عادة الابتعاد عن القطيعة.

فأنا أقطع بلا تردد بأن العقل المصرى.. والعقل العربى كدائرة أوسع وأعمق له سيكون بفقدان محمود أمين العالم أقل مما كان بوجوده.

نعم ان أفكاره موجودة وستبقى فينا ومعنا كل باتجاهه وكل حسب منهج رؤيته للأمور.. ولكن «العالم» لن يعود يعطينا من الزاد الفكرى الذى اعتاد أن يزودنا به عند كل منعطف جديد.

وكم كان زاده متنوعاً وعميقاً.. نعم ألم يكن زاده للفكر المصرى والعربى فلسفياً فى الأساس؟ نعم.. ولكن الفلسفة اتسعت فى عقل العالم للاجتماع والنقد الاجتماعى والنقد الأدبى.. للتراث والحداثة والمعاصرة، وللأبعاد العربية والإسلامية فى هذا التراث، كما للأبعاد الماركسية فى ادراكاتنا وبالتالى فى معرفتنا.

ليس بيننا مثل محمود أمين العالم - من استوعب الفلسفة الماركسية - أولى أن أقول الفكر الماركسى - منهجاً وموقفاً فكرياً.. وفى الوقت نفسه نضالا بكل ما تعنيه كلمة نضال من أعباء وآلام.

وحده كان قادراً على استيعاب الفلسفة الماركسية والمنهج الجدلى.

وفى الوقت نفسه تحمل تبعات النضال. الذى يتجاوز الدائرة الفكرية المجردة إلى العمل السياسى بوعورته وقسوته وصراعاته الحادة والمميتة. لا أستطيع أن أستعيد إلى ذهنى مفكراً ماركسياً عربياً أو عالمياً جمع إلى عمق الإلمام بالفلسفة الماركسية مسئولية النضال من أجل الاشتراكية كما فعل العالم فى حياة خصبة وثرية بالعطاء الفكرى والنضالى معاً. هذا فوق طاقة البشر غالباً. حتى إننا تذكرنا أسماء مثل لوركاس أو كودويل أو نيرودا نتذكر فى اللحظة نفسها أن استيعابهم للفلسفة الماركسية كان أقرب إلى التخصص فى الموهبة، الأول والثالث فى الشعر والثانى فى الاجتماع.. وجميعهم رحلوا فى ظروف زمنها النضالى.. لكن أحداً منهم لم يكن يملك قدرته باستيعاب عمق الفلسفة الماركسية بشموليتها مع صدام وصدمات النضال من أجل الاشتراكية من أجل الطبقة العاملة التى لم تغب أبداً عن ذهنه فيلسوفاً، أو فى بداياته الأولى شاعراً صاحب ديوان قد لا يعرفه كثيرون ممن يعرفون العالم عن قرب.

لم يخلق هذا التفرد بالعمق والاستيعاب فى المفكر محمود العالم ذلك النوع من المفارقة مع الناس لم يستغل أبداً وكان لديه كل ما يبرر الاستعلاء. ظل فيلسوفاً ومناضلاً على درجة من دماثة الخلق هى مضرب الأمثال فى كل سنوات حياته.. وستبقى كذلك لأجيال. أسموه بمسيح الحركة الشيوعية المصرية للدلالة على تواضعه شبه الدينى وهو الشيوعى المناضل المنظم الذى ذاق عذاب الاعتقال. ولم يستغل حينما لجأت إليه السلطة التى أودعته المعتقل لسنوات ليكون رئيساً لإحدى أكبر مؤسساتها الإعلامية.

بل انه لم يستغل حينما اختار أن يصدر فصيلته تتيح للفكر التقدمى أن يطرح قضاياه ويشرح منهجه كانت ،قضايا فكرية، نتيجة جهود محمود العالم الفكرية والمهنية. لم يكن فقط كاتبها الأول والأساسى.. إنما حمل من أجل إصدارها ومواصلتها عبء وعناء تحديد المحاور والموضوعات وتحديد الكتاب، بل تحمل عبء وعناء الاتصال بهم أينما كانوا فى مصر أو فى بلدان الوطن العربى.. أو أبعد من ذلك حتى فى أمريكا.

لم أسمع محمود امين العالم - وكان بالنسبة لى أستاذى وأستاذاً لأساتذتى السابقين واللاحقين - يقول ،أنا، كأن هذه الكلمة لا وجود لها فى اللغة. حتى فى الأحاديث والمقابلات - التى لا يمكن حصرها - التى أجريت معه على اتساع نطاق الصحافة الثقافية العربية، لم يكن يلجأ إلى هذه الكلمة الذاتية وكأنه درّب نفسه على الابتعاد منها، أو كأن غيابها جزء طبيعى من تكوينه



الوجدانى والفكرى. حتى فى مواقع القيادة التنظيمية الشيوعية كان مغايراً للقياديين الآخرين فى قيادته للعمل التنظيمى، كان النضال السياسى والاجتماعى بالنسبة إليه فعل بساطة وفى الوقت نفسه فعل التزام وفهم وعطاء.

كان محمود العالم الماركسى بعمق وفهم والتزام سقراطياً فى طريقة قيادته.. علمنا كأنه يتعلم منا وجهنا وكأننا نحن الموجهين، ومثل سقراط لم يكن يحب السفسطة، لكنه لم يواجهها أبداً باللعنات. لم يكن يصدر أحكاماً.. لأنه كان يملك قدرة على الاقناع ربما هى المصدر الحقيقى لأستاذيته. وكانت أستاذيته متميزة بشكل خاص لأنها لم تتأطر بلقب «دكتور» أو «الدال السحرية» التى تسبق أسماء أناس كثيرين فى دنيانا تعلوهم معرفة العالم الفلسفية والسياسية والاجتماعية، والثقافية عامة.

الآن يتعين علينا أن نحتمل ادراكنا لحقيقة أن العقل العربى ناقص محمود أمين العالم أقل كثيراً فى امكانياته وفى استشراف مستقبله.

وهذا وضع لا ينبئ بإمكان تجاوزه والتعويض عنه إلا نشر أفكار العالم على أوسع نطاق.. بالكامل ودون أى حذف أو ابتسار ■

المتمرد

د. عاصم الدسوقى

وقد عرفت جانبا منها فى اكسفورد عندما التقينا فى صيف ١٩٧٤، تذكرت ما قاله أديبنا توفيق الحكيم فى شرحه لمعنى اليمين واليسار فى كلمات بسيطة من أن الأصل فى الإنسان أنه يمينى، وفى اللحظة التى يتمرد فيها على واقع حياته وظروفها يصبح يساريا، أى ينتقل من حافة اليمين إلى اليسار. والمعنى أن الإنسان فى طفولته وصباه يعيش تحت سلطة الأسرة يأتمر بأوامرها فى النهى عن أشياء والسماح بأشياء دون أن يكون له رأى فيما يأخذ به وفيما يمتنع عنه. ولكن عندما ينضج تفكيره خارج البيت مع رفاق المدرسة وصحبة الشارع، وتتسع آفاق معرفته من تجارب الشعوب الأخرى، يبدأ فى عقد المقارنات بين هنا وهناك، ويبدى كثيرا من الرفض لما هو قائم ويطالب بالتغيير، يصبح فى نظر الذين يعرفونه متمردا آبقا لعب الشيطان برأسه.

هكذا نشأ محمود العالم فى مناخ دينى فى أحضان القاهرة الفاطمية، فوالده شيخ أزهرى وأخواه يتعلمان فى الأزهر شأن غالبية المسلمين منذ كان الأزهر جامعا ومدرسة. ولكن يبدو أن التمرد فى أسرة العالم خاصية مشتركة .. فأخوه شوقى يفصل من الأزهر لأنه

عندما تابعت حياة محمود أمين العالم منذ نشأته وحتى انخراطه فى صفوف الشيوعيين،

أصدر كتابا أسماه "الأزهر فوق المشرحة" انتقد فيه أسلوب التعليم والدراسة بالأزهر دون أن يتعظ من تجربة الإمام محمد عبده الذى فصل من الأزهر جراء إقدامه على مثل هذا النقد. وأخوه الآخر الضرير لا يستسلم لواقعه ويتعلم بطريقة برايل فيقرأ له محمود أدبيات اللغة والنحو والفقه وأصول الدين والفلسفة. ولكن اللافت للنظر أن محمود العالم لا يلتفت من كل تلك الأدبيات التى قرأها إلا إلى التصوف. ولكن بدلا من التصوف "المعتدل" الذى يذوب فيه المتصوف فى نور الله وتصبح له إشراقاته، نجده ينجذب إلى تصوف الحلاج، ذلك المتمرد على الطقوس الشكلية فى الدين "والذى لا يؤمن بقوة مفارقة..".

وفى تلك الأثناء قرأ نيتشه ووجد فيه التقاء روحيا مع الحلاج.. فالحلاج يقول بالإنسان الكامل، ونيتشه يقول بالإنسان الأعلى، أى لا توجد قوى مفارقة تفرض عليه مشيئتها. وأثناء معايشته لمثالية الحلاج-نيتشه، قرأ كتاب "آفاق العلم الحديث" ليعقوب صروف رئيس تحرير المقتطف فنراه يهبط من علياء المثالية إلى عالم المادة.

وفى قسم الفلسفة بالجامعة حيث كانت المقررات الدراسية بعيدة عن الفلسفة المادية والبرجماتية بحكم المناخ السياسى -الثقافى القائم آنذاك، يتعرف محمود العالم أكثر وأكثر على أركان المدرسة المثالية فى التفكير (برجسون وهيجل). وينهى دراسته الجامعية ويمضى فى طريق الدراسات العليا بمثاليته التى بدت واضحة فى اختياره لموضوع رسالته للماجستير "نظرية المصادفة فى الفيزياء الحديثة". ولما كان جوهر التفسير المثالى للظواهر يقوم على المصادفة وليس على الأسباب المادية والعقلية، فإن محمود العالم أراد من موضوع رسالته أن يثبت أن المصادفة تحكم كل شىء حتى الظاهرة الطبيعية (الفيزياء)، وأن العلم ليس موضوعيا. وتلك فى تقديرى قمة المثالية، وحجته فى تحديد الموضوع بهذا الشكل أن العلم مصدره الإنسان، وأن الإنسان لا يمكن أن يكون آليا أو ميكانيكيا فى تصرفه، وأن الإرادة والحرية تحكم تصرفاته واختياراته. مع أن الإنسان آنذاك كان قد عرف أسرار تكوين الظاهرة الطبيعية وتطورها من خلال الملاحظة والتجربة وأصبح يتحكم فيها ويخضعها لمصلحته بعد أن كان يخضع لها، الأمر الذى أدى إلى انكماش مساحة التفكير الغيبى فى ذهنه لحساب التفكير العقلى المادى.

ثم يقع على كتاب لينين "المادية والنقد التجريبى" خارج سور الدراسة المثالية بالجامعة فتضطرب أركان مثاليته ويؤمن بموضوعية العلم ويبادر إلى تغيير عنوان رسالته إلى "نظرية المصادفة الموضوعية فى الفيزياء"،

لكن هذا لم يجعله ماديا تجريبيا. ذلك أن هجوم لويس عوض الدائم على المادية الجدلية والتاريخية جعله يتحاشى الالتزام الماركسى، ويلوذ أكثر ومعه أنيس منصور "بعقلنة" عبد الرحمن بدوى للوجودية. ولكن ما أن قرأ كتاب إنجلز "جدل الطبيعة" وانتهى من بحثه للماجستير، انصرف عن المثالية إلى المادية الجدلية تاركا أنيس منصور مع وجودية عبد الرحمن بدوى. وأصبح مقتنعا بالعلم فى جانبه التطبيقى الطبيعى، وبالماركسية إطارا منهجيا للتفكير المادى. ولعل هذا يفسر اختلافه فيما بعد مع زكى نجيب محمود (١٩٦٤) حول التناقض بين الحتمية وحرية الإرادة أو التلازم بينهما، إذ ذهب زكى نجيب محمود الذى كان يستخدم منهج المثاليين فى نقد الحتمية التاريخية إلى القول بأن الحتمية والإرادة لا يجتمعان.

والحال كذلك .. كان لا بد وأن ينخرط محمود العالم فى صفوف الشيوعيين، واختار الانضمام لمجموعة "النواة" باحثا عن الحرية والعدالة الاجتماعية. غير أنه وهو داخل الحركة الشيوعية ظل محتفظا بروحه المتمردة ضد القولبة التنظيمية. فعندما تقوم ثورة يوليو ١٩٥٢ وتقف ضدها أغلب فصائل اليسار المصرى باعتبارها إنقلابا عسكريا فاشيا أبدى احترامه "لنظام عبد الناصر واعتبره وطنيا"، وحدد اختلافه مع الثورة فى غياب الديموقراطية وفى استخدام الأسلوب الفوقى فى الإجراءات المصيرية مثل الوحدة مع سوريا (فبراير ١٩٥٨).

وعندما صدرت قوانين التأميم الكبرى فى يوليو ١٩٦١ وهو فى معتقل أبو زعبل بعد هجمة يناير ١٩٥٩ على الشيوعيين، وسمع خالد بكداش زعيم الحزب الشيوعى السورى يصف التأميم "بأنه يسهم فى تكوين رأسمالية الدولة الاحتكارية .. وأن ميثاق العمل الوطنى (١٩٦٢) يمثل الأساس النظرى لهذا التحول" ويوافقه على هذا التحليل كثير من الشيوعيين المصريين، وجدنا أن محمود العالم يرفض هذا التحليل ويختلف مع الذين وافقوا عليه، ذلك أنه رأى فى الميثاق مشروعا أكبر من مشروع الحزب الشيوعى المصرى نفسه. ولهذا لا يجد حرجا فى أن يبرق لجمال عبد الناصر من المعتقل قائلا له: "إن التأميمات العظيمة تحتاج لشكل آخر من التنظيم غير الإتحاد القومى لكى يحميها ويحسن تطبيقها"، فكان هذا الموقف فى التحليل بداية خلاف عميق بينه وبين الرفاق.

وفى معتقل الواحات بعد أبو زعبل بلغ اختلافه مع رفاقه درجة عالية بشأن يوليو ١٩٥٢ فقد أعلن موقفه قائلا: "إن ثورة يوليو حركة وطنية ديموقراطية رغم طابعها العسكرى وأساليبها الفوقية غير الديموقراطية ولا بد أن



نتعاون معها". وكان فى هذا الموقف يرد على من كان يقول وهم فى المعتقل بأن التأميم معاد للشيوعية لأنه يمس الطبقة الوسطى التى هى جزء من الجبهة التى يسعى الشيوعيون لإقامتها .. وأن يوليو وفق هذا التحليل حركة ضد الطبقة العاملة وضد الشيوعية معا، وأنها بالتالى حليفة للأمريكان باعتبار أن أمريكا ضد الشيوعية.

كانت مشكلة محمود العالم وسط الحركة الشيوعية أنه رأى أن ثورة يوليو تمثل تيارا وطنيا ديموقراطيا اشتراكيا، وعلى هذا الأساس يصبح فى الإمكان إن لم يكن ضروريا إيجاد وحدة بينها وبين الشيوعيين لتشكيل حزب ديموقراطى وليس حزبا شيوعيا مثلما حدث فى كوبا وبلدان أخرى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ذلك أن الماركسية فى مصر -فى تقديره- لم تصبح جزءاً من ثقافة المصريين وأنها لم تمصر عكس الصين التى أصبحت الماركسية فيها جزءاً من تراثها الثقافى مثل الكونفوشوسية.

وما أن خرج من المعتقل وتم حل الحزب الشيوعى انضم إلى التنظيم الطليعى داخل الإتحاد الإشتراكى، ثم ضمه عبد الناصر إلى السكرتارية العامة للتنظيم الطليعى وتولى عدة مسئوليات ثقافية تنفيذية فى رحاب ثورة يوليو.

ولكن .. وكلما كان يجد الأمور تسير على غير ما يشتهى ينبض عرق التمرد داخله يغذيه القلق فنراه يعترف فى مقدمة كتابه "الوعى والوعى الزائف" بأن حل الحزب الشيوعى كان خطأ كبيرا، وأن وجود الشيوعيين فى أجهزة الدولة من خلال الحزب الديموقراطى الذى آمن بإمكانية تكوينه (أى تحالف الشيوعيين مع الثورة) لحماية الثورة ممن يحيطون بجمال عبد الناصر فكرة خاطئة .. والصحيح أن بقاء الشيوعيين مع الجماهير مختلفين مع عبد الناصر كان كفيلا بحماية الثورة.

وفى ١٩٩٢ وبعد رحلة طويلة من القلق عاوده التمرد مجددا، فنراه يتخلى عن المادية التاريخية، ويرفض أن تطبق نظرية ما على التاريخ "لأن النظرية تتسم بالعمومية والكلية والثبات والاستقرار النسبى، على حين أن التاريخ محصلة عوامل ذاتية وموضوعية متداخلة ومتشابكة ومتفاعلة ومتناقضة تشكل إمكانات مفتوحة". ومن هنا يعجبه قول كارل بوبر بشأن عدم وجود قوانين تاريخية كلية، وبالتالى استحالة أن يكون التاريخ علما. والحال كذلك فإن محمود العالم يلتقى مع المثاليين مرة أخرى الذين كان يعبر عنهم زكى نجيب محمود فى رفضه للحتمية التاريخية واختلف مع محمود العالم.

وفى تلك المرحلة من إعادة النظر نراه يؤكد أن كارل ماركس لم

يقل بالمراحل الخمس المتوالية فى حركة التاريخ، وأن ستالين فى كتابه "المادية الجدلية والمادية التاريخية" هو الذى أشاع هذا الطابع النسقى الغائى، وأعطاه مشروعية ماركسية زائفة، وخطورتها أنها لا تتعلق فقط بالماضى وإنما بالحاضر والمستقبل. ثم ينتهى إلى خلاصة خطيرة لها مغزاها وهى إن المادية التاريخية فى التطبيق رؤية مفروضة على التاريخ وليست رؤية مستمدة من دراسة موضوعية عينية للتاريخ.

وبهذا التحليل الأخير فسر محمود العالم (يوليو ١٩٩٢) انهيار الاتحاد السوفييتى وسقوط حكم الحزب الشيوعى لأن الماركسية تحولت إلى نسق مطلق مفروض بشكل علوى إرادوى على المجتمع. وبدلا من أن تكون وسيلة لتحرير المجتمع من الاغتراب أفضت إلى مضاعفة اغترابه وسجنه فى نسق نظرى، فأصبحت النظرية التاريخية (الماركسية) نظرية غير تاريخية.

واستمرارا لهذا التحليل ينتهى إلى أن النظام الرأسمالى الذى يقوم على العوامل الذاتية والتنافس، رغم أن جوهره الاستغلال والاغتراب، ينجح فى تجديد نفسه ومن ثم فى الاستمرار لوجود هذه الحرية النسبية، على حين يفشل النظام الإشتراكى فى نموذجه السوفييتى بسبب تجاهل العوامل الذاتية والإنسانية مع أن الإشتراكية قامت أساسا بهدف إلغاء الاستغلال وإزالة الاغتراب.

وفى عام ١٩٩٢ أيضا ينتهى محمود العالم إلى أن الفكر القومى يغلب عليه طابع الانفعال الإستعلائى المثالى، ويفتقد الرؤية الموضوعية للتاريخ والمجتمع والواقع عامة، ويتغافل عن حقائق الاختلافات والتمايزات العرقية والطبقية والظروف الاجتماعية الموضوعية فى "بلادنا العربية"، رغم أنه فكر يتبنى قضية القومية العربية وهى تحرير البلاد العربية جميعا وتقدمها ووحدتها ويناضل من أجل تحقيقها. والصحيح عنده أن الشكل الكونفيدرالى وليس الفيدرالى أو الوحدة هو المناسب فى حالة البلاد العربية وقد يؤدى إلى أشكال أعمق فى ضوء الممارسة.

وهكذا ظل "فريد" (أى محمود العالم) فى الحركة الشيوعية المصرية فريدا فى الحياة الثقافية بما قدمه من رؤى إبداعية فى عالم السياسة والأدب جديرة بالاهتمام والمتابعة، وفريدا فى شجاعته فى ممارسة النقد الذاتى الذى لولاه لما كانت هذه المقالة التى كتبتها اعترافا بفضله وتقديرا لعلمه ■

العالم: المكافح الرقيق

فاروق عبد القادر

إذاً.. فقد رحل استاذنا محمود أمين العالم. رحل عن عمر يناهز الثامنة والثمانين (هو من مواليد ١٩٢١)، عاش حياته كما يليق بكاتب ومثقف يسارى، عرف دوائر اليسار منذ أربعينيات القرن الماضى، وقد انغمس محمود فى النضال العملى لتلك الدوائر

ويحتفظ له تراث هذه المرحلة بموقف محدد حين مضى فى الشهر الأخير من سنة ١٩٥٨، بصفته ممثلا للجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى ليناقش أنور السادات بصفته ممثلا لسلطة عبد الناصر، حول حل الحزب الشيوعى وانظمام أعضائه كزفراد إلى تنظيم الثورة الذى كان بصدد إنشائه آنذاك، ولم يتفق الرجلان، فزعم السادات أن سائقه قد غلبه النوم ليترك للعالم أن يقطع الطريق الطويل على قدميه فى الهزيع الأخير من الليل، وبعدها بأيام قليلة، ومع مطلع السنة الجديدة فتح عبد الناصر أبواب السجون والمعتقلات: كى تضم الشيوعيين والماركسيين واليساريين على وجه العموم، ومن بينهم محمود العالم بطبيعة الحال، حيث قضوا السنوات التالية حتى أطلق سراحهم فى ١٩٦٤ .

وكانت السجون والمعتقلات تفيض بالنقاش والجدل حول نظام عبد الناصر، وصحة الموقف الذى يجب أن يتخذ إزاءه.

وليس لنا أن نحكم على النوايا، وإنما نحكم على الأفعال والنتائج، وقد انغمس محمود العالم منذ طلق سراحه فى العمل العام، ولم يكتف برئاسة مجالس إدارات الصحف والهيئات التى تولاها.

(من بينها هيئة المسرح وأخبار اليوم وسواهما)، بل سعى للانضمام إلى ما عرف بالتنظيم الطليعى، وهو ذلك التنظيم الذى كان من المفروض أن يكون سرياً داخل الاتحاد الاشتراكى، وتولى مسئوليات تنظيمية وتثقيفية فيه، ولعل هذا ما وضع بذرة الصدام بينه وبين أنور السادات الذى تفجر حين ولى هذا حكم مصر، ما دفع أن العالم إلى الانقطاع الثانى فى حياته (والأول هو فترة الاعتقال) ، فقضى السنوات العشر الأخيرة من حياته قبل أن يأتى إلى مصر ويقضى أيامه فيها أستاذاً يعمل فى التدريس فى جامعات أجنبية (إنكليزية وفرنسية).

ولعل أبقى ما خلفه محمود العالم، هو جهده فى النقد الأدبى بوجه خاص، وهناك أقف لألقى نظرة هى سريعة بالضرورة على عمليات من أوائل أعماله وأواخرها.

(أصدر محمود نحو العشرين كتاباً).

كتابه الأول الذى لفت إليه الأنظار بشدة، حين أصدره مع رفيق جانب من حياته وعمله أستاذ الرياضة البحتة الدكتور عبد العظيم أنيس، أصدراه بعنوان فى الثقافة المصرية، فى ١٩٥٥ ، وعهدا إلى الكاتب والمفكر اليسارى اللبنانى حسين مروة بتقديمه، جاء فى هذه المقدمة : «إن واضعى هذه الدراسات إنما وضعاها وهما يخوضان معركة فكرية هى معركتنا نحن الآن فى لبنان، ومعركة إخواننا الكتاب الواقعيين هناك فى سوريا والأردن والعراق والجزيرة، وحتى بلدان المغرب العربى من الجانب البعيد.

نفى بها هذه المعركة الأزلية الأبدية بين كل جديد وكل قديم.. إلخ».

وأحدث الكتاب ضجة هائلة لدى صدوره، ولعله اليوم ينتمى إلى الماضى أكثر مما ينتمى إلى الحاضر، لكنه كان آنذاك طلقة فى معركة ، ولعله كان من الطبيعى أن تأتى بعض كلماته خشنة، وبعض أحكامه بحاجة إلى مزيد من المراجعة، وبعض هذه المراجعة قام بها محمود العالم نفسه. لكن الكتاب دافع عن أفكار كانت آنذاك جديدة على الواقع الثقافى العربى بدرجة أو بأخرى.

إن العمل الأدبى تعبير، له طبيعة خاصة، عن واقع اجتماعى، وإنه على علاقة وثيقة كذلك بحياة صاحبه، ثم إنه قادر على زن يسهم فى صوغ هذا الواقع وتعديل مساره، بحيث يصبح أكثر أمناً وعدلاً وجمالاً!

الكتاب الثانى صدر فى ١٩٩٤ بعنوان «أربعون عاماً من النقد التطبيقى، جمع فيه مقالاته ودراساته فى القصة والرواية المصرية والعربية التى كتبها على طول مسيرته النقدية الممتدة من الخمسينيات إلى التسعينيات يشوبها هذان الانقطاعان اللذان سبقت إليهما الإشارة.

هكذا جعل المؤلف كتابه أقساماً ثلاثة: الأول: مقدمات نظرية، ويضم مقالات أربعة: الرواية بين زمنها وزمنيتها - العلاقة بين الخطاب الروائى والواقع - الخطاب الروائى والأيديولوجى.

ثم نشأة الرواية العربية فى مصر ومنحى تطورها.

القسم الثانى يضم التطبيقات النقدية فى مرحلة الثمانينات والتسعينيات، والثالث يضم تلك التطبيقات من الخمسينيات حتى السبعينيات.

ولاشك فى أن الكتاب كله بأقسامه الثلاثة عمل فكرى ونقدى مهم. فإضافة إلى القيمة النقدية، ثمة قيمة تاريخية توثيقية تتعرف إلى تطبيقات الخمسينيات.

نعم: هكذا كان يكتب معظم النقد الأدبى آنذاك:

فى تقديم مجموعة «الأنفار» لمحمد صدقى يكتب العالم: «إنها تعبر عن مرحلة من مراحل نمو القصة العربية فى اتجاهها نحو الواقعية، فى حملها لرسالة الإنسان والتقدم والسلام، فى تعبيرها عن كفاح الطبقات الشعبية الكادحة من عمال وفلاحين وفئات صغيرة ،.... إن هذه المجموعة من القصص المصرية القصيرة ليست من إبداع محمد صدقى وحده، بل هى ثمرة سنوات خصبة من الكفاح الوطنى والاجتماعى.. إلخ».

وعن مجموعة «أزمة كاتب» لإبراهيم عبد الحليم يكتب: وكتابات إبراهيم عبد الحليم تفيض بالمعنى الثورى، تعلن الموقف الثورى، تحض وتحرض وتصوغ الصورة الشعبية الدامية المتوفرة المتحفزة، وتبنى التعبير الإنسانى الحاد الفاجع . إنها تذوب كالدموع أو تتألق كالضحكات أو تدقب ككتائب الفدائيين، أو تصرخ كطعنة السنكى فى جسد العدو الغادر.. إلخ..

نعم .. كان النقد الأدبى آنذاك جهير الصوت عالى النبرة، قد لا يعنى بالنظر إلى فنية العمل وخصوصيته وتحليل بنائه وائتلاف عناصره، قدر ما يعنى بالنظر إلى مضمونه المباشر فى ضوء «المنهج الواقعى» بما شابه آنذاك من جمود وقصور، فالأدب ليس فى التحليل الأخير غير طلقة فى معركة ينحصر أثرها فيما يمكن أن تحدثه مع بقية الطلقات.

فى هذا الضوء وكما يتضح من تطبيقات الخمسينيات راهن الناقد على أسماء عديدة، وتوقع لها أن تحتل أماكنها اللائقة فى تاريخ القصة العربية.

وتنقضى السنون على تلك النبوءات ولا يتحقق أى منها! تعثر بعض أصحاب هذه الأسماء وتوقف بعضها الآخر، وغاب بعضها



الأخير تماماً كأن لم يكن!

ولعله يصبح من التزيد أو النطاعة النقدية لو شئت، أن تقف عند منهج الناقد ومعظم أحكامه في تلك التطبيقات الباكرة منها ما هو صاحبها ذاته يقضى بقية العمر في مراجعتها ، ويقول أكثر من مرة إنه لا يبررها ولكنه يفسرها.

ومن أكثر دراسات هذا الكتاب عمقاً وأصالة، دراسته بعنوان «عالم يوسف إدريس القصصى».

في هذه الدراسة يتمثل منهج محمود العالم النقدى كما تطور حتى مرحلته الأخيرة.

وكان يعنى عناية كبيرة بفنية الأعمال وخصوصيتها، لكنه لا يهمل دلالاتها الاجتماعية، ولا يقف عندها كثيراً، بل يتجاوزها نحو الدلالات الإنسانية الشاملة.

وسواء اتفقت معه في النتائج التي يبلغها بمنهجه التحليلي ذلك أم اختلفت، فإنك لابد مقر له بسلامة المنهج واستقامته.

احتفظ من نقده القديم بأثمن ما كان فيه، وأفاد من النقد الحديث وأساليبه في التحليل فائدة عظمى، وعرف نقده في الثمانينيات والتسعينيات مزيداً من الاهتمام بالكشف عن «البنى» الأساسية المترددة في العمل ودلالاتها، إلى جانب الحفاوة باللغة وطرائق استخدامها.

لم يعد المضمون هو المقدم، والأولى بالاهتمام، بل إنه دلل أكثر من مرة على أن بناء العمل الفنى هو دلالته دون انفصال أو تمايز.

كان محمود العالم رجلاً دمثاً رقيقاً متواضعاً، وواحد من أصفى النماذج التي مثلت بحياتها وأعمالها موقف المثقف اليسارى نموذجى، واحتمل في سبيل التعريف بهذا الموقف ما احتمل منذ دخل حلبة النضال السياسى الفكرى في أربعينيات القرن الماضى، وحتى رحل قبل أيام ■



أقــــلام:

فريدة النقاش / ماجد يوسف / صلاح عدلى / د. ماهر شفيق فريد

صلاح عيسى / د. صلاح السروى / عبد الرحمن الأبنودى / أحمد عبدالمعطى حجازى د.

عبدالعظيم أنيس / د. جابر عصفور / د. جلال أمين / د. مينا عبدالملك

د. محمد الباجس / شعبان يوسف / د. محجوب الحارث / حامد الحلبى

هانى الحورانى / سمير كرم / د. عاصم الدسوقى

فاروق عبدالقادر / حلمى سالم.

الأمل للطباعة والنشر   رقم الإيداع ٧٥١٢ / ٩٢   «الثمن : ٣ جنيهات»